الصفعة

الأسير/ عاشق الأقصى

تنويه:

هذه الحكاية تروي سطورًا من حياة الأسير الفلسطيني المقدسي «سامر الأطرش» وهي بكل تفاصيلها حقيقية .. لم أجد وأنا أسردها حاجة لأن أضفي عليها شيئًا –ولو يسيراً– من الخيال والمبالغة، إذ إن فيها من المؤثرات المثيرات ما يفي بغرض شد القارئ وجذبه وتشويقه..

ومع أنها حكاية شخص إلا أنها تجسد حالة شعب أصابته نائبة الدهر، ودهته بلية العصر، وقاصمة الظهر، الاحتلال الصهيوني لأرضه، ويخوض هذا الشعب العظيم ملحمة تحرره من نير الاحتلال بكل شكيمة وقوة، وإقدام، وشهامة، وصبر، وعناد وجلد .. ويسجل صفحات رائعة من البسالة والبطولة جدير أن تسجل وتخلد..

عاشق الأقصى

إهداء

أهدي هذا العمل إلى:

صاحب هذه القصة الأخ المجاهدالأسير/ سامر الأطرش.. الذي أحب أن يبعث كلمتي:

وفاء وتقدير إلى أمه وزوجته ..

رسالة وفاء وتقدير إلى أمي الغالية:

التي حملتني كرهًا ووضعتي كرهًا، وتحملت مشقة تربيتي، وتعليمي، فكانت مثالًا للأم المربية، المعلمة، العاملة، الصابرة، المصابرة ..

فلك يا أمي كل الحب وكل الوفاء وكل التقدير وكل التوقير ..

ابنك سامر ..

رسالة محبة ووفاء لزوجتي الغالية ..

التي كانت وما زالت نعم الزوجة الصالحة الحافظة للطيب بما حفظ الله، التي صبرت وضحت وقدمت .. وربت أبناءها على حب الله والوطن ..

وما زالت وفية محافظة على العهد ..

فلك مني كل حب وتقدير

زوجك المحب / سامر

ألف باء العزة والإباء:

إذا صفعـك أحدهـم عـلى خـدك الأيمـن، ولم يتمعـر لـه خـدك الأيـسر ويسـتعر..

ولم يتلظ أنفك ويضطرم..

ولم تثر نفسك ويغلي دمك..

ولم تنطلق يدك لترد الصفعة بمثلها..

ولم يدبر عقلك ويمكر..

فأنت لست بحر..

أولى لك.. مخنث العزم، سقط المتاع، فأولى أن تدعى: خصي..

زفرة..

مـن يـوم أن أسرت.. منـذ نحـو أربـع عشرة سـنة وذات الحلـم ما ينفك يراودني..

أرى رجـلًا كريـه المنظـر، رث الثيـاب، أشـعث أغبر، فظًـا غليظاً، ضخم الجسـم، شـديد البأس، يقال لـه: «البؤس» !!

يظهـر لي في «حلبـة مصارعـة» عابـس الوجـه قاطـب الجبـين، يرقعنـي بنظـرات ملئـت بالحقـد والغـل، والتهديـد والوعيـد.. يناديني بكلمات يطغـى عليهـا لحن السـخرية والاسـتخفاف:

- ها.. هل أنت مستعد للمنازلة؟

أعض على شفتي، كاظمًا خوفي، وأنا أكاد أثير غيظاً، وأجيب:

- أعلـم أننـي سـأنال منـك هذه المـرة.. أيها اللعـين ! وأنقـض عليه بكل مـا أوتيـت من قـوة وعزم.. لكنه سرعـان ما يصرعني -كـما في كل مرة- ثـم مـا يلبـث أن يعيـد يـده إلى صـدري وينتـزع مـن قلبـي شـعاع نور كان قـد تسـلل إليـه عبر نافـذة الأمل.. ثم ينظـر إلي شـزرًا فتنتابه حالة

مـن الضحـك الهسـتيري.. ثـم يختفـي.. لتبقـى ضحكته تـرن في أذني.. لا أسـتغرب مـراودة هـذا الحلـم لي! فقـد عايشـت البـؤس منـذ نعومـة أظفـاري.. مـن لبانـه المـر رضعـت، وبـين أحضانـه ترعرعـت، وعـلى عينيـه صنعت..

لكنـي طالمـا سـألت نفـسي: لمـاذا دائمًـا يغلبنـي؟ ألضعـف بي؟ أم لقـوة جبـارة لا تقهـر بـه؟

أم أنه قدر أكبر مني ومنه، رماه بي، ورماني به؟

آآه.. هل يأتي يوم يمكنني الله فيه منه.. فأقهره، وأقبره؟

عـلى هـذا الأمـل أعيـش وبانتظـار ذلـك اليـوم أصـبر نفـسي.. وأرتقب.. وأنـا عـلى ثقـة بالصباح..

«أليس الصبح بقريب»؟

ميلاد صعب

لم تفتأ أمي تذكر لي قصة ميلادي حتى تهيأ لي أنني أذكر جيدًا تلك اللحظات من حياتي!

وبت أستشعرها تمامًا كما حدثت، لا كما قصت علي! أتخيلني تارة على بطني وأخرى على ظهري، و «أم إلياس» تقلبني بين يديها، وهي تدلك جسدي الصغير بزيت الزيتون الدافئ، فيما أمي تقف فوق رأسي ترقب عملية التدليك عن كثب، وهي تردد بصوت خافت خاشع، رقية وأدعية وآيات قرآنية: (بسم الله الشافي، باسم الله المعافي، اسم الله عليك، اسم الله حولك وحواليك، الله يحفظك وينجيك، ومن كل عين وشر يحميك، ولا يضرك ولا يؤذيك.. «قل أعوذ برب الفلق...»، «قل أعوذ برب الناس..».

أما أم إلياس فكانت هي الأخرى تتمتم بكلمات مسجوعات، أحسبها من الإنجيل، ولا أكاد أستبين منها شيئًا.. وأنا – وقتذاك – أبكي وأئن ألمًا، وخوفًا من هول الحالة.

وعندما تنتهي عملية التدليك كانت تسلمني «أم إلياس» لأمي

لتلبسني ثيابي، وتذهب هي لتحضر لي «خلطة الأعشاب السحرية».. تمسك أمي بالكأس، وتقول لي:

- أغمض عينيك وافتح فمك، واشرب الكأس على دفعتين.. أتجرع قليلًا منه، فيرتجف بدني، وتتغشاني القشعريرة، وتغرورق عيناي بالدمع، فأقول:

- إنه مر!

- فترد أمي بحزم:

- لا بد أن تشربه حتى تتعافى.. هيا اشرب.. «عشان خاطري»..

- فأتجرعه، ولا أكاد أستسيغه.. وعندما كانت أمي تقول لي:

والله أنت نجوت من فم الموت بفضل أم إلياس «الله يخلف عليها» كنت وأنا صغير أتخيل الموت وحشاً مفترساً، فاتحاً فاه، يوشك أن يلتهمني، قبل أن تظهر «أم إلياس» فجأة وتنتشلني من بين أنيابه!

وكما أوصتني أمي لم أنسَ يومًا فضل أم إلياس عليَّ، فمنذ صغري وأنا أكن لها كل تقدير ومحبة واحترام.. لكني لم أستطع أن أقدم لها أكثر من ذلك.. ولا أحسب أنها أرادت -يومًا- أكثر من ذلك، فالحب والتقدير هو أسمى ما يكون أن يقدمه إنسان لأخيه الإنسان، لأنه لا يقدر بثمن.. يكفي أنك إن أحببت أحسنت، وإن كرهت أسأت.. بعض الناس خلقوا مجبولين بالحب والرحمة والألفة والمودة، مثل: أمي وأم إلياس وزوجتي «أم قتيبة»، وكثير من الناس خلقوا مجبولين بالكره والبغض والحقد والشر، كالمحتلين الصهاينة..

وبين الحب والكره، والخير والشر تتلخص حكايتي:

ولدت في البلدة القديمة من مدينة القدس في مشفى «الهوسبيس» عام ثمانية وسبعين لأم مقدسية من عائلة «طه» وأن خليلي من عائلة الأطرش.. والتزاوج بين أبناء مدينتي القدس والخليل - كان ولا يزال - أمرًا طبيعيًا مألوفًا.. فبين المدينتين عروة وثقى لا انفصام لها، متنت أواصرها عوامل القداسة والتاريخ المشترك، ووشائح القربى، والرحم والدم.. والثورة في وجه عدو مشترك يمكر بهما أكثر من غيرهما، ويبغي بهما كل سوء وشر.. وبعد أيام من ميلادي انتقلت عائلتي للعيش في مدينة الخليل.. لكني -وكما تقول أمي- كنت كالنبتة التي اجتثت من أرضها وزرعت في تربة غير تربتها، أخذت أذوي وأذبل، وأخذت الأمراض والأوبئة تفتك بجسدي الغض الضعيف.. فلم تجد أمي بديلًا من العودة بي إلى مسقط رأسي، القدس.. زهرة المدائن، حيث نزلنا في بيت «أم إلياس» وهي سيدة مسيحية، كانت تقيم لوحدها في مجاور لبيت جدي لأمي في حي «باب الواد» أولادها الذكور من المغتربين في أمريكا، ولها بنت متزوجة في «حارة النصارى» القريبة، تأتي لزيارتها وتتفقد أوضاعها بين الحين والآخر.

وكان ليدي «أم إلياس» الحانيتين، وأعشابها المنتقاة بعناية من سوق «العطارين» مع عبير القدس، وشرف مجاورة المسجد الأقصى، مسرى رسول الله _صلى الله عليه وسلم_ ومعراجه إلى السماوات العلا وقع السحر على جسدي، فسرعان ما تشافيت وتعافيت، وعادت الحياة والنضارة تدب في جسدي، لأعود إلى الخليل من جديد.

طفولة بائسة

مـا إن فتحـت عينـاي عـلى الدنيـا وأصبحـت أدرك ما يدور حـولي حتى وجـدت «البـؤس» قد أحكـم خناقه حـول عائلتي!

أب حكـم عليـه بالأشـغال الشـاقة المؤبـدة! «قـدر عليه رزقـه» فاضطر أن يعمـل حجـارًا يقطـع الصخـور في المحاجـر، كان يغـادر البيـت مـع أذان الفجـر ولا يعـود إليه إلا سـاعات المسـاء، يقضي كل نهـاره في الكد والكـدح والشـقاء والتعب.

ومـا إن يدخـل البيـت ويلقـي علينا السـلام حتـى يلقي جسـده المنهك التعـب عـلى فراشـه، ويغـط في نـوم عميـق.. ومـن الفرشـة إلى الورشـة ومن الورشـة إلى الفرشـة!

حتـى أننـي كنـت أحيانًـا كثـيرة أتسـاءل بيني وبـين نفسي: كيـف تمكن أبي وهـو عـلى تلـك الحالـة مـن إنجـاب اثني عـشر ولدًا؟

كنـت كل يـوم أمنـي نفـسي بالجلـوس مـع أبي والحديـث إليـه.. أنتظـر قدومـه مسـاء بصـبر فـارغ، لكـن لم يكن يومًا في حال يسـمح لـه باللهو واللعـب مـع أطفاله.

كان أبي مقلًا من الكلام، مطيل الصمت، كثير الشرود.. تراه وقد أثقلت الهموم كاهله حتى نأى بها، وكان من ثقلها أن يميد، تائهًا حيرانًا.. لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلًا..

لقد علمني الدهر من حال أبي، أن أشد ما يقهر الرجال هو: الفقر..

أبي كان بكامل قوته وصحته يقهر الصخر الصلد، لكن الفقر قهره، وجعله مقهورًا، لا يقدر أن يوفر لأطفاله الصغار حاجاتهم وقوت يومهم، فماذا عساه يفعل وقد استنفد في سبيل ذلك كامل طاقته وقدرته ووقته؟!

هنا تقدمت «المرأة العظيمة» في هذه اللحظة الحرجة من حياة العائلة لتساند زوجها، وتحمل عنه جزءًا من العبء الملقى على كاهله.. بحثت عن عمل.. أي عمل.. بحثت كثيرًا حتى نجحت في التعاقد مع صاحب معمل لإنتاج «ليف الاستحمام» ومع أن ما كانت تتقاضاه أمي من أجر نظير جهدها كان زهيدًا، إلا أنه خفف ولو قليلًا من ضائقتنا.. في تلك الأثناء كنت قد بلغت السادسة من عمري، ولما كان التعليم التمهيدي «البستان» ترفًا لا يناله الفقراء أمثالي، فإن عهدي بالتعليم قد بدأ بالإلزامي في سن السادسة.

ذهب والدي إلى مدرسة «النهضة» القريبة من بيتنا لتسجيلي فيها، إلا أن «حظي العاثر» كان قد سبقه إليها، فيما تأخر هو فلم يجد مكانًا شاغرًا لي، فاضطر إلى تسجيلي في المدرسة الإبراهيمية، المجاورة للحرم الإبراهيمي، وهي تبعد كثيرًا عن منزلنا..

وفي هـذه المدرسـة ومـع بداية تعلمـي خـط الكلمات بيـدي أخـذ «البـؤس» يخـط لي صفحـات سـوداء مظلمـة مؤلمـة في سـجل حيـاتي!

الطريـق إلى المدرسـة كانـت أشـبه مـا تكـون بطريـق الآلام، طويلـة ووعـرة وتعترض سـبيلك بركة تسـمى «بركـة السـلطان» والتي أصبحت تعـرف – فيـما بعـد – ببركـة المـوت، لكـثرة مـن قـضى فيهـا غرقًـا..

السـير بمحـاذاة هـذه البركـة صيفًا قد يكـون ممكنًـا بصعوبة، أما شـتاء «فيـكاد يكون مسـتحيلًا»..

وقبـل وصولـك المدرسـة عليـك أن تتجـاوز حواجـز جنـود الاحتـلال وقطعـان المسـتوطنين، الذيـن كانـوا يجـدون في الأطفـال الفلسـطينيين خاصـة طلبـة المـدارس «صيدًا ثمينًـا» وهدفًا سـهلًا، يسـتعرضون عليهم قوتهـم، ويتلـذذون بتخويفهـم والتنكيل بهم، ولم يكن أطفال فلسـطين بعـد قـد كسروا حاجـز الخـوف مـن هـؤلاء الأوغـاد الأنـذال، وقلبـوا المعادلـة والسـحر عـلى السـاحر.. فـإذا بلغـت المدرسـة، انتظـرك هناك مـا هـو أعظم!

كانـت المدرسـة الإبراهيميـة في ذلـك الوقـت أشـبه مـا يكون بالسـجن! فصولهـا الدراسـية: غـرف للتحقيـق والتعذيـب! والمدرسـون كان منهـم مـن هـو أسـوأ بكثـير مـن المحققين!

وكان أن أوقعنـي «حظـي العاثـر» بـين يـدي مدرس ما أحسـب الرحمة قـد عرفـت يومًـا طريقهـا إلى قلبـه! كان هـذا المـدرس كريـه المنظـر، قصـير القامـة، تفـوح مـن فمـه ومـن جنباتـه رائحـة «سـجائر الهيشي»

التـي كان مدمنًـا عـلى تدخينهـا حتـى داخـل غـرف التعليم!

كان يـأتي إلى المدرسـة راكبًـا عـلى حمار أسـود «يمشي على ثلاثة كمشـية العرنجـلي»! وعندمـا كنـا نـراه مقبلًا على حـماره كانت ترتعـد أوصالنا، وتضطـرب خفقـات قلوبنـا، فتأخـذ بالتسـارع عـلى نحـو يشـعرنا أنهـا تـكاد تنقلـع مـن صدورنا.

فـإذا مـا دخـل علينا غرفـة التدريـس، خشـعت الأصوات فلا تسـمع لنا ركزًا!

كان يضع عصاه الغليظة على الطاولة، ثم يصرخ بنا: قيام.

فننقـز واقفـين وعيوننـا في الأرض، والدمـاء تـكاد تتجمـد في عروقنـا، ثم يـصرخ بنـا: جلوس...

فنخـر قاعديـن، مطأطئـي رؤوسـنا، بانتظـار مـا سـيكون مـن أمرنـا في يومنـا العصيـب هـذا!

فـإذا أمسـك عصـاه، حمدنـا اللـه! فذلـك يعنـي أن «مزاجه رائـق» وأن قطنـا مـن العـذاب سـيقتصر عـلى العصـا فقـط !! أمـا إذا ضرب بقبضة يـده عـلى الطاولـة، فهـذا يعنـي أن «مزاجه متعكـر» وأن يومنـا لن يمر عـلى خـير، وأنـه سـيتفنن في تعذيبنا!

كثـيرًا مـا كان يحـب أن يمسـك بالطالـب مـن شـعر رأسـه ويرفعـه في الهـواء ثـم يلقـي بـه أرضًا، ثم يمسـك بشـفة الطالـب السـفلى ويجذبها إليـه بقـوة، ويخـرج بيـده الأخرى مـن جيبه، أو مـن وراء حـزام بنطاله

«موس كباس»[1]، ويفتحه بنفضه في الهواء، ثم يضعه تحت شفة الطالب ويوهمه أن سيقطعها له، حتى يكاد ينخلع قلب الطالب المسكين من الخوف، وينفجر بالبكاء والتوسل والرجاء.. فيتركه ليعمل فيه لسانه سبًا وشتمًا، وتهديدًا ووعيدًا.

في هذه الأثناء يكون باقي الطلاب كأنما على رؤوسهم الطير، كل واحد يدعو الله -في سره- من أعماق قلبه، أن يقرع الجرس إيذانًا بانتهاء الحصة قبل أن يأتي الدور عليه ويساق للعذاب.

وهكذا أصبحت المدرسة كابوسًا ثقيلًا مرعبًا يطاردني في يقظتي ومنامي، أحال حياتي إلى قلق وخوف وفزع دائم، فكنت أنتظر يوم الجمعة بصبر فارغ، فإذا ما انصرم تغشتني الهموم والأحزان، ولم تفارقني حتى يعود.

ومع دخول فصل الشتاء، ازداد حالي سوءًا، فأصبح الوصول إلى المدرسة دونه خرط القتاد، ولم يكن أمامي من بديل أن أذهب إلى المدرسة.

وذات يوم وقع لي ما كنت أخشى منه وأحاذر: فتحت السماء أبوابها بماء منهمر، فسالت أودية بقدره، وفيما أنا عائد من المدرسة وحيدًا جرفتني مياه السيول، وأخذت تسحبني نحو «بركة الموت» بقوة وسرعة، وأنا أبكي من شدة الخوف، وشدة البرد، وأستغيث وما حولي من مغيث، وشعرت حينها أني أصبحت قاب قوسين أو أدنى من

(1) نوع من أنواع السكاكين الحادة

المـوت، وتخيلـت أمـي المسـكينة باكيـة حزينـة عـلى فراقـي.. فـزاد في ذلـك غـمًا فوق غمي، وخـارت قواي، وأسـلمت أمري لمصـيري المحتوم، حتـى إذا مـا أوشـك السـيل أن يلقـي بي في فـم «بركـة المـوت» وظننت أني قـد هلكـت، إذا بيـد تمتد إليَّ فجأة وتنتشـلني، وكان رجلاً مر صدفة بالمـكان، كأنمـا سـاقته يد القـدر لإنقاذي.

تحول جذري

شهدت نفسي الوادعة الهادئة المسالمة انقلابًا مفاجئًا، شنته عليها قوى مقهورة مكبوتة بداخلها، فأحالتها من نفس مسالمة مستسلمة تخاف من كل شيء وتحسب حساب كل شيء ولا تجرؤ على مواجهة شيء إلى نفس متمردة جريئة مقدامة مبادرة، حدث ذلك كله في لحظة واحدة، عندما أمسكت حجرًا بيدي وقذفت به جنود الاحتلال.

كنت يومها في الصف الثالث الابتدائي عندما تصادف خروج طلبة مدرستي بمرور حافلة تقل مستوطنين صهاينة، فسارع الطلبة لالتقاط الحجارة ورجم «المستوطنين» بها، ووجدتني أفعل مثلهم دون تفكير أو تقدير، وما إن تحرر أول حجر من يدي، حتى شعرت -فجأة- بأنني أتحرر من الخوف والجبن، وأقهر «البؤس» الذي لازمني واستحوذ عليَّ منذ ولادتي، فأخذت أرجم بكل قوة وعزيمة مستمتعًا منتشيًا بذلك، وكلما رجمت كلما ازددت سعادة ونشوة، وازددت قوة وصلابة، وثقة بالنفس، كنت أنظر إلى حافلة المستوطنين التي أرجمها فأرى فيها «الشيطان الأكبر»! ذاك الذي يرجمه حجاج بيت

الله الحرام، و«البؤس» الذي يكدر حياتي، وينغص عيش عائلتي، والمدرسة التي تحبسني وتقهرني والمدرس المستبد الذي يعذبني وينكل بي، والجندي والمستوطن الذي يضربني ويشتمني، ويسلبني حقي في العيش بسلام فوق أرض آبائي وأجدادي.

كلهم «الشيطان» القابع في حافلة المستوطنين، وفي لمح البصر امتلأ المكان بجنود الاحتلال، وطفقوا يطلقون علينا وابلاً من الأعيرة النارية والمطاطية والغاز المسيل للدموع، وراحوا يطاردوننا في الأزقة، وبين البيوت، وانتهى الأمر باعتقال عدد من الطلبة، وصدور أمر عسكري بإغلاق المدرسة بالشمع الأحمر مدة ستة شهور، فكانت الضارة النافعة، تم توزيع الطلبة على مختلف مدارس مدينة الخليل، وتنحى «حظي العاثر» جانبًا هذه المرة، وقبلتني مدرسة النهضة القريبة من بلدتنا، وفيها وجدت شيئًا من المستراح والمتنفس، الذي لم يسبق لي أن عرفته!

كانت أول حصة دراسية حضرتها في «مدرسة النهضة» مادة التربية الإسلامية وكان مدرسنا حينها الأستاذ خضر طه، وكان على النقيض تمامًا من مدرسنا في الإبراهيمية، رجل فاضل، طيب القلب عطوف رحيم ودود، يعتبر التدريس رسالة سامية يؤديها ابتغاء مرضاة الله، وليس مجرد وظيفة بائسة لا يتقاضى من خلالها إلا أجرًا زهيدًا لا يستحق أن يبذل لأجله أي جهد أو تعب.

على يد الأستاذ خضر تعلمت «الوضوء» وتعلمت أساسيات من أمور الدين، لم أكن أعلمها من قبل، وقبل هذا كله تعلمت منه أني

«إنسـان» يمكـن أن يفهـم ويتعلـم ولسـت «حـمارًا» كـما كان يصفنـي «أسـتاذ المدرسـة الإبراهيميـة»!

بـدأت أتخلـص مـن «فوبيـا التعليـم» شـيئاً فشـيئاً، وبـدأت أسـتعيد طفولتـي المسـلوبة، وإنسـانيتي المكبلـة في أصفـاد القهـر والاسـتبداد، وانطلقـت في المدرسـة بـروح تمتلـئ بالأمل والتفـاؤل والهمة والنشـاط.

مـن أوائـل الطلبـة الذيـن تعرفت عليهم في تلك المدرسـة طالب اسـمه: ماهـر عبـد اللطيـف، وكان متميـزًا بأدبـه وتواضعـه وخلقـه الجـم، وأصبحنـا صديقـين حميمـين، وكانت المفارقـة أن صديقـي ماهر ينحدر مـن عائلـة غنية وأنـا من عائلة تتسربـل بالفقر، وتأتـزر بالبؤس، وكنت أذهـب للمدرسـة دائمًا فارغ الجيب، دون «مـصروف» وماهر هو الذي يشـتري لي «السـاندويتش» والعصـير مـن مصروفه الخـاص، مع أن ذلك كان يشـعرني بكثـير مـن الحـرج، لكـن طيبـة وعفويـة صديقـي ماهـر، كانـت تجعلنـي أتقبـل الأمـر، وكان مـن أمر صديقـي ماهر: أنـه لما كبر قتـل مظلومًـا! خـلال عـراك بالأيـدي وشـجار دار بـين أخ لـه ومجموعة مـن الشـباب كانـوا يطالبونـه بديـن لهـم عليـه، فقـدم ماهر مـن بعيد ليسـتوضح الأمـر، ويفصـل بـين المتخاصمين، فما كان مـن أحدهم إلا أن طعنـه بسـكين حـادة قاتلـة، فقضى نحبـه دونما ذنـب اقترفه.

وفي مدرسـة النهضـة تعرفـت –أيضًـا– على طالب اسـمه: رائـد أكرم أبو سـنينة، وأصبحنـا صديقـين حميمـين لا يـكاد يفـارق أحدنـا الآخـر، كنـا نقـضي معظـم وقتنـا معًا، وكنا حينهـا في الحادية عشرة مـن عمرنا، كان مـن أمـر صديقـي العزيز «رائد» أن اسـتيقظت والدته الحاجة «سـارة»

ذات يـوم فوجدتـه قائمًا يصـلي الفجر، فسرت بذلك ولم تتمالك نفسـها، وتنتظـر حتـى يتـم صلاتـه، اندفعـت نحـوه وطفقـت تقبلـه، فلـما أتم صلاتـه سـألته: ما الـذي أيقظـك باكرًا؟

- رأيت حلمًا واستيقظت على أثره؟

- وماذا رأيت؟

- رأيتني آكل «كرابيج حلب»

- فابتسـمت أمـه، وأعطتـه نقـودًا، وقالـت لـه: عندمـا يطلـع النهـار ويفتـح التجـار أبـواب محلاتهـم، تذهـب وتشـتري «كرابيـج حلب» لك ولإخوانـك.

ومـا إن بـدأت الحياة تسري في أنحاء جسـد المدينـة حتى خرج صديقي «رائـد» مـن منزلـه لـشراء «كرابيـج حلـب» وكان ذلك في فصل الشـتاء، وفي طريـق عودتـه راحـت الأمطـار تنهمر بغزارة، فـرأى أن يلطخ الطين حـذاءه إذا عـاد مـن الطريـق الترابي الذي سـلكه ذهابًا، ففكـر أن يعود سـالكًا «طريـق المقـبرة» وراح يفـز مـن قـبر إلى قـبر محـاذرًا أن تطـأ قدمـاه الأرض «فيتلطـخ حـذاؤه» وفيـما هـو يقفـز فـوق القبـور كانت العواصـف والأمطـار قـد قطعـت أحد أسـلاك الكهربـاء وألقـت بطرفه فـوق أحـد القبـور، ومـا إن لمسـت قـدم «رائـد» حافـة القـبر المغمـور بميـاه الأمطـار حتـى صعقتـه الكهرباء، ومـات من فوره، _رحمـه الله_.

كان مـوت صديقـي «رائـد» صدمة صاعقة بالنسـبة لي، خلفت في قلبي جرحًـا داميًـا، وحزنًـا عميقًـا، شـعرت أن تلـك الفسـحة التـي أتاحهـا لي

«البـؤس» لم تكـن إلا اسـتدراج لي كي يفجعنـي في ذروة اسـتقرار حـالي بفقـد أعـز أصدقـائي، ولم أجـد –وقتئـذ– وسـيلة لتفريـغ كبتـي وحنقي وغضبـي غـير رجـم المحتلـين الغاصبـين «أس البـلاء وأصـل كل داء» بالحجـارة وكنـت أحـب أن أصطحـب معـي زميـلي «إدريـس عاشـور» وكان مـن أمـره: أن استشـهد هو الآخـر، لكن ذلك كان متأخـراً، وهو في سـن الثامنـة والعشريـن، حيـث وقـع في كمـين نصبه له جنـود الاحتلال بعـد أن اسـتدرجوه مـع رفيقـه «عـلاء رفاعيـة» إلى منطقـة في مدينـة الخليـل تدعـى «تربـة اليهـود» وكان كل واحـد منهـما يحمل مسدسًـا، لكـن جنـود الاحتـلال كانـوا بانتظارهـما، فبدؤوهـما بإطـلاق النـار، وأجهـزوا عليهـما قبـل أن يتمكنـا مـن اسـتخدام سـلاحيهما، ويذكـر أنه كان في جيـب الشـهيد «علاء» نسـخة مـن القرآن الكريـم، فمزقه جنود الاحتـلال فـوق جثته.

وقت ساعة العمل

ألجأني «البؤس» للعمل في سن مبكر، فعملت في مصنع للأحذية في ساعات ما بعد الظهر، جامعًا بين المدرسة والعمل، ولم يكن ذلك بالأمر السهل، كان أصعب ما فيه رؤيتي لرفاقي الطلاب ينتظرون بصبر فارغ أن يقرع جرس المدرسة إيذانًا بانتهاء الدوام لينطلقوا مسرعين، لا تكاد تسمعهم الأرض من الفرحة للعب واللهو، أما أنا فإن قرع جرس المدرسة كان يعني لي، بدء مرحلة جديدة من التعب، يعني الانتقال من عناء إلى عناء.

لم أكن أعلم حينها أن العناء هو الذي يصنع الرجال، صنع «العناء» مني رجلًا قبل أن أتم الثالثة عشرة من عمري!

وكان أعظم خير ما حصل لي في هذا المصنع، هو هدايتي لطريق الصلاح والرشاد، بدأ الأمر بصورة عرضية من خلال استماعي للنشيد الإسلامي الحماسي، الذي كان يطيب لعمال المصنع الاستماع إليه بصوت مرتفع، فكان لكلمات وصوت المنشد السوري «أبي راتب» الشجي العذب، وقع السحر على نفسي، كان يزودني بشحنات إيمانية

وحماسية كبيرة، تجعلني أشعر بعظم المسؤولية والدور الواجب القيام به نحو ديني ووطني.

ولفت تأثري الشديد بالنشيد الإسلامي انتباه أحد عمال المصنع الذي ينتمي لحركة المقاومة الإسلامية حماس، فأخذ يتقرب مني ويصحبني معه للمشاركة في بعض النشاطات الإسلامية في المساجد، كالإفطارات الجماعية، ومعارض الكتب، والندوات، والمحاضرات.

وأذكر أنني في تلك الفترة أخذتني الحماسة وفكرت في رفع راية حركة المقاومة الإسلامية حماس الخضراء فوق مئذنة المسجد، وعرضت الأمر على اثنين من أبناء عمي طالبًا منهما مساعدتي في ذلك، فقال أحدهما: بل نرفع علمًا فلسطينيًا، وقال الآخر: لا يهمني ما نرفع، راية أو علمًا، كلاهما عندي سواء، فاتفقنا أن نرفع تارة علمًا فلسطينيًا، وأخرى راية خضراء.

ثم ازداد اهتمامي وتعلقي بالمقاومة، فأخذت أجمع صور الشهداء وأحتفظ بها في حجرة نومي، الأمر الذي أثار حفيظة أبي، فكان كلما أحس باقتراب دورية من جيش الاحتلال من بيتنا سارع بتفتيش أغراضي بحثًا عن تلك الصور للتخلص منها قبل أن يجدها جنود الاحتلال، فأتعرض للتنكيل والاعتقال.

فجائعي في الحياة كانت أنواعًا كثيرة! وهذه المرة طالت نفسًا أعز علي من نفسي.. أمي! كانت مارة -ذات يوم- في شارع قريب من بيتنا وفجأة اعترض طريقها قطيع من الذئاب البشرية من «المستوطنين الصهاينة» وانهالوا عليها ضربًا بكل وحشية وهمجية، حتى أوقعوها

أرضًا ثم أخذوا يركلونها بأرجلهم، وهي تستصرخ وتستغيث كل من يصله صوتها من أهل النخوة والشهامة، وما إن تجمع خلق منهم وهبوا لنجدتها، حتى كان الأوغاد الصهاينة قد أوسعوها ضربًا بالأيدي والأرجل، ولم تفلح محاولتها الحثيثة أن تحمي بيدها جنينيها اللذين كانت حاملًا بهما، فتوفيا في بطنها، واضطرت لإجراء عملية جراحية لإخراجهما، أبى «أبناء الظلام» على هذين الجنينين أن يريا النور، فقتلوهما وهما ما زالا في رحم أمي.

خيم الحزن والوجوم على العائلة، ورأيت أبي لأول مرة يبكي كما النساء، كسر هؤلاء الأوغاد قلبًا مكسر الصخور، وقهروه وجعلوه يشعر بالعجز وقلة الحيلة والضعف، لم يستطع أن يحمي زوجته وعائلته، فبكى وما أشد وقعها على النفس، دموع الرجال! وما أصعبه من مشهد ذاك الذي ترى فيه الرجل ذا القوة والبأس، والشدة، ضعيفًا كسيرًا، مقهورًا.

أما أنا فعشت حالة من الذهول والتيه والحيرة، لا أستطيع حيلة ولا أهتدي سبيلًا، لم أمر طيلة حياتي بمثلها، كان الحقد على الصهاينة المحتلين يملأ قلبي، فيما العجز يكبلني، لكن شيئًا ما بداخلي كان يؤكد لي، على أنني يومًا ما سأنتقم.

جاءتني أمي عشاءً إلى مضجعي، وهي تحبس الدمع في عينها، وتكتم قهرها في صدرها، كانت مكرهة على أن تنحي عاطفة الأمومة جانبًا، وتخاطبني بلسان العقل، لا القلب، قالت:

- يا بني.. أنت اليوم قد كبرت..

زنت هـذه الكلمـة في أذني، وتفاعـل معهـا سريعًـا كامـل جسـدي، وأخـذت أسـأل نفـسي: أحقًـا أني قـد كبرت؟ أنـا لم أتم الثالثـة عشرة من عمـري بعـد، لكـن مـا دامـت أمـي تقـول إننـي قـد كـبرت فهـذا يعني فعـلًا أني قـد كـبرت، فأمـي أعلم بي منـي لنفسي، وأحرص عـليّ مني، ثم أردفـت تقول:

- ليـس مـن خيـار أمامنـا إلا أن تـترك المدرسـة، وتعمل لتسـاعد أباك في مصاريـف البيت.

وماذا عساي أعمل، أكثر من عملي في مصنع الأحذية بعد المدرسة؟

- هـذا العمـل لا طائـل منـه، خالـد قد كـرى فرنًـا في البلـدة القديمة في القـدس، وقـد طلبـت منـه أن يأخـذك لتعمل معـه، فوافق.

ابتعلـت ريقـي وقلـت كـما المستسـلم لقـدر مـؤلم ألم به: كما تشـائين،، يـا أماه.

لم أحلـم يومًـا -كباقـي الأولاد - أن أصبـح طبيبًـا أو مهندسًـا، أو حتـى مدرسًـا، ومـع ذلـك فـإني عندمـا تركـت المدرسـة شـعرت أني قد خسرت شـيئًا عظيـمًا ثمينًـا، لا يمكـن يومًـا أن يعوض.

انتقلـت إلى العمـل في مدينـة القـدس -مسـقط رأسي- مـع خـالي في الفـرن، وكان عمـلًا شـاقًا مضنيًـا، المـكان ضيـق جـدًا، والحـرارة بالغـة الارتفـاع، والعمـل يتطلـب سرعـة، وخفـة وصفـاء ذهـن، وأنـا دائـم الـشرود، والسرحـان، فـكان خالي دائـم الصراخ عـليّ، وتنبيهـي وتأنيبي، ذات الكلـمات تخـرق مسـمعي طـول النهار، وأسـترجعها سـبات الليل:

« صحيح معنا، شد حيلك، حرك حالك، يلا.. بسرعة، وين سرحان» سنة ثقيلة شاقة من العمل المضني أمضيتها في هذا الفرن، لم أجد فيها ما يسر، اللهم إلا لحظات أختلسها بين الحين والآخر لزيارة المسجد الأقصى والصلاة فيه، كنت أشعر أنني ما إن ألمح باب المسجد الأقصى حتى تحط عيني كل همومي وأحزاني، وتتغشاني السكينة والطمأنينة، وراحة النفس وهدوء البال، والأعصاب، فإذا ما خرجت فارقتني هذه، وعادت مسرعة تتلبس جسدي، وتستحوذ عليه !

وكنت كلما دخلت المسجد الأقصى أقلب ناظري في أرجائه متفحصًا وجوه كل الرجال الذين يؤموه للصلاة، متمنيًا أن يتقدم أحدهم مني معرفًا على نفسه، أنه ينتمي لحركة المقاومة الإسلامية حماس، ويعرض علي الانضمام إلى صفوف الحركة، فقد كان عشق «حماس» و «المقاومة» يملأ قلبي ويستحوذ على فكري، لكن تمنيات «الصغار» ليس بالضرورة أن تقع في عالم الكبار.

اضطر خالي إلى إغلاق الفرن، وتسريحي من العمل بعد تعرضه لخسارة فادحة، فحمدت الله أن تخلصت من هذا العبء الثقيل الذي نأى عن حمله كاهلي، وحمدته أيضًا أن أحدًا لم يقل إن «وجهي النحس» هو ما جلب الخسارة لخالي!

عدت إلى الخليل من جديد، باحثًا عن عمل جديد، ومكثت مدة من الزمن عاطلًا عن العمل، إلى أن جاء بعض أبناء عمومتي وعرضوا عليّ العمل معهم في «القصارة» وكانت مهمتي «تجهيز الطينة»

للقصِّيرة، ورغم ما كنت ألاقيه في هذا العمل من تعب ونصب إلا أنني كنت أتقاضى مقابله أجرًا معقولًا ساهم في تخفيف معاناة عائلتي، ثم تنقلت بعد ذلك من عمل إلى آخر، تارة في القدس وتارة في الخليل.

وأثناء عملي في القدس في سوق اللحامين في تنظيف «الروس والكرشات» وقعت مجزرة الحرم الإبراهيمي وكانت والدتي –حينها– معي في القدس، فلما بلغني النبأ وقع عليّ كالصاعقة، فتركت ما في يدي مباشرة وغادرت مكان عملي مذهولًا، لا ألوي على أحد، وقررت التوجه فورًا إلى مدينة الخليل، لكني وجدت أمي قد أخذت –عن قصد– كل ما كان في جيبي من نقود، حتى لا أتمكن من السفر! فطلبت من زوجة خالي إعطائي أجرة الطريق فرفضت بتوجيه من أمي، فخرجت من البيت غاضبًا مصرًا على الذهاب إلى الخليل ولو مشيًا على الأقدام، وما إن وصلت «باب العمود» حتى صادفت سيارة يقودها جار لنا، فاستوقفته وأقلني معه إلى الخليل، وعندما وصلت الخليل وجدتها حزينة كئيبة، متوحشة ثياب الحداد، المحلات التجارية مغلقة أبوابها، مخفية ما كانت تبديه من زينة ومتاع ومتع، الشوارع شبه فارغة، وسائل النقل كلها متوقفة، وإذا مرت واحدة فعلى استحياء، تمشي الهوينة محاذرة أن تحدث أي ضجيج أو صخب، الأولاد لزموا منازلهم، فلا لعب اليوم ولا مشاجرات ولا مشاغبات، الناس كل الناس عيونهم دامعة، ووجوههم عابسة، وخطاهم مثقلة، دهى المدينة أمر جلل، أصابت رصاصات الغدر قلب الخليل النابض «الحرم الإبراهيمي» فارتزأت خليل الرحمن

وانقلب وجهها ضاحك القسمات الطلق حزينًا باكيًا.

حتى المحاريب تبكي وهي جامدة

حتى المنابر ترثي وهي عيدان(2)

وزفت خليل الرحمن شهداءها البررة الأخيار الأطهار بمسيرات حاشدة مهيبة خرجت فيها خليل الرحمن عن بكرة أبيها، وكان من بين الشهداء ابن عمي «جابر عارف»، ووقفت أمام جثمانه المسجى «وعليه من حلل الدماء أبهى وشاح»، ورحت ألثم رأسه والدموع تنهمر مدرارًا من عيني، فشعرت فجأة كأنما يقول لي:

كفكف دموعك ليس في عبراتك الحرى ارتياحي

هذا سبيلي إن صدقت محبتي فاحمل سلاحي

فأقسمت حينها بالله غير حانث، لآخذن بثأره، ودعوت الله أن يعينني على أن أبر بقسمي، وأبلغ ثأري، وأشفي صدري.

---

(2) من قصيدة نكبة الأندلس لأبي البقاء الرندي.

انتمائي لحركة حماس

أقمنا بيت العزاء لابن عمي الشهيد «جابر عارف» وتوافد علينا الناس من كل حدب وصوب، من مدينة الخليل وقراها وضواحيها، ومن مختلف المدن والقرى الفلسطينية، كلهم جاء ليشد من أزرنا ويواسينا وكنت أشعر بصدقهم، ونبل أخلاقهم، وتعاطفهم الشديد معنا، وتأثرهم البالغ بمصابنا، وحقدهم وغضبهم الجم على المحتلين الصهاينة، الذين تجاوزوا في إجرامهم كل حد.

وبينما أنا منهك باستقبال الوفود، وتوزيع القهوة والتمر عليهم، اقترب مني شخص أعرفه جيدًا، وهمس في أذني:

- أريد التحدث معك على انفراد.

هززت رأسي وقلت:

- إن شاء الله.

تحينت الفرصة المناسبة، وخرجت من بيت العزاء وهو في أثري، وانطلقنا غير بعيد، وبعد تمهيد قصير قال لي:

- هـل ترغـب في الانتـماء لحركة المقاومة الإسـلامية حـماس، والعمل في مقاومـة الاحتلال تحـت إطارها؟

انفرجـت أسـاريري مبـاشرة، وتهلـل وجهـي مبـشرًا، وسـارعت بالقـول: كل الرغبـة، فهـذا مـا كنـت أتمنـاه وأنتظـره بفـارغ الصـبر.

- لكـن عليـك أن تعلـم أن هـذا الانتماء قد يجر عليك تبعات ويتسـبب لـك بمحـن وابتـلاءات، وعليـك أن تعلـم -أيضًـا- أن العمـل التنظيمـي يتطلـب: سريـة تامـة، وانضباطًـا كامـلًا، وطاعـة مطلقـة، «إلا أن تؤمـر بمعصيـة» فهـل أنـت مسـتعد لذلك؟

- أنا على كامل الجاهزية والاستعداد.

- إذن عـلى بركـة اللـه، أعانـك اللـه، ووفقـك وثبتـك وأجـزل لـك الأجـر والثواب.

وبـدأ نشـاطي مـع حركة «حـماس» بالمشـاركة في الفعاليـات التي تدعو إليهـا الحركـة: مثـل المظاهـرات والمسـيرات، ورفـع الأعـلام والرايـات، وكتابـة الشـعارات عـلى الجـدران، إلى مـا غـير ذلك.

وكان أمـير مجموعتنـا يكلفنـي في بعض الأحيان بمهام معينة في سـاعات متأخـرة مـن الليـل، وحتـى أضمـن اسـتيقاظي في الوقت المحـدد، كنت أربـط أصبـع يـدي بخيـط طويـل وألقي بـه خارج نافـذة غرفتـي، ليأتي أحـد رفاقـي فيشـد الخيـط ويوقظنـي، فأتسـحب مـن البيـت بهـدوء حتـى لا يشـعر أهـلي بخروجـي مـن المنـزل، وفي بعـض الأحيـان كان أمـير المجموعـة يسـتدعيني للمثـول في وقـت متأخـر مـن الليـل للقيام

بمهمـة مـا، وعندمـا أحضر وأفـراد المجموعـة، يخبرنا أنـه لا يوجد هناك أي مهمـة، وإنمـا جـاء ليفحـص جاهزيتنـا، ودرجـة اسـتعدادنا، فنصـلي ركعتـين مـن الليـل ثـم ننفـض عائديـن إلى بيوتنا.

بعـد انتـمائي لحركـة حـماس زاد التزامـي الدينـي، وحرصي عـلى حضور النـدوات والمحـاضرات التـي تدعـو إليهـا الحركـة في مختلف المسـاجد، وكان الشـيخ الشـهيد/ أكـرم الأطرش واحـداً ممن يعطونـا دروس العلم والمواعـظ في المسـاجد، وكان كفيفًـا، واعتقـل مـدة أربع سـنوات بتهمة العلاقـة بمجموعـات تابعـة لحركـة حماس، ينسـب إليها قتل مسـتوطن صهيـوني قـرب الحـرب الإبراهيمـي، ومـن الطريـف أنـه كان يعلمنـا أسـاليب الصمـود في التحقيـق، والمصائـد «العصافـير» فـما اعتقـل وقع هـو نفسـه في المصيـدة، واعـترف عنـد العصافـير !! رحمـه اللـه رحمـة واسـعة وأحسـن مثواه.

بعـد أيـام مـن مجـزرة الحـرم الإبراهيمـي كان لابـد لنـا من أن نسـارع في لملمـة جراحاتنـا، وأن نكظـم حزننـا في صدورنـا، وأن نتعـالى عـلى آلامنـا، وننطلـق للعمـل، فقـد رأينـا أن الخـوف أقعـد عـددًا غـير قليـل مـن ضعـاف النفـوس عن عـمارة المسـجد الإبراهيمـي، الأمـر الذي دق لدينـا ناقـوس الخطـر، وخشـينا أن يسـتغل الصهاينـة ذلـك ويقومـوا بتهويـد المسـجد بالمطلـق، فرحنـا نحرض الشـباب ونحثهم عـلى الصلاة والتواجد المسـتمر بالمسـجد، وكخطوة تشـجيعية في هذا الإطار، أسسـنا فريـق كـرة قدم تابـع للحرم، وأشرف الشـيخ وائل البيطـار على تدريب الفريـق، وكان صاحـب همـة عالية، وعزيمة ونشـاط، اسـتطاع أن يحوز

خـلال وقـت قصـير عـلى حـب واحـترام جميـع الشـباب، وهـو صاحب فضـل عـلي، فهـو مـن عمـق حـب الديـن والوطـن في نفـسي، وهـو من كنـاني بــ «أبـو قتيبـة» تيمنًـا بالقائد المسـلم العظيـم قتيبة بن مسـلم.

الصفعة

عـدت إلى عمـلي في سـوق اللحامـين في القـدس متحمـلًا مـا تشـمئز منـه الأنفـس مـن أجـل مـا تطيـب لـه نفـس إخـوتي وأمـي وأبي، عندما أعـود إليهـم نهايـة الأسـبوع ببعـض المـال والهدايـا، وكنـت – دائمًـا – أنتظـر سـاعة الأسـبوع بفـارغ الصـبر، حيث تغمـرني الفرحة والسـعادة عندمـا أنـال أجـر تعبـي وكـدي، وجـاء يـوم الخميـس وقبضـت أجـري مـن صاحـب العمـل كالمعتـاد، وانطلقـت مسرعًـا إلى أسـواق القـدس، واشـتريت لإخـوتي وللبيـت وأكـثرت، وغـادرت إلى الخليل، بينـما أنا مار في شـارع الشـهداء شـارد الذهـن، أفكـر في الفرحـة التي سـأدخلها على أمـي وإخـوتي عندمـا أدخـل عليهـم بمـا تحملـه يـداي مـن هدايا.

اندفعـت نحـوي فجـأة «مسـتوطنة» صهيونيـة كانـت تسـير بحراسـة عـدد مـن جنـود الاحتـلال، وصفعتنـي بقـوة عـلى خـدي وهي تسـبني وتشـتمني وقبـل أن أخـرج مـن حالـة الذهول التـي أصابتنـي وأضع ما في يـدي مـن أكيـاس وثـب عـلي جنـود الاحتـلال وقامـوا بتثبيتي وشـل قـدرتي عـلى الحركة، فيـما راحت تلك الفاجـرة تعبث بأكيـاس الأغراض التـي كنـت أحملهـا وألقـت بهـا أرضًـا، وأخـذت تدوسـها بقدميها دون

أن يتوقف لسانها عن سبي وشتمي!، ثم ولوا مدبرين، وبقيت متسمرًا في مكاني مهمومًا محزونًا، وقد ذرفت بضع دمعات من عيني، والناس يمرون بي يرقعوني بنظرات الشفقة والرحمة، متمنيًا لو أن الأرض انشقت وتبلعني، شعرت بالخزي والعار والذل والقهر، وما أسوأه من شعور، وما أثقله على نفس الرجل الحر، أن يتطاول عليك الأنذال، ويمتهن كرامتك السفهاء ولا تستطيع حيلة ولا تجد وسيلة ولا تهتدي سبيلًا، لاسترداد كرامتك، والثأر لنفسك وكيل الصاع صاعين لمن بغى عليك وظلمك.

ما أسوأه من شعور، عندما يسيطر عليك العجز فيكبلك، ويقيدك ويشل حركتك وقدرتك، حتى لتكاد تنفجر حنقًا، أو تموت كمدًا، جررت نفسي ومضيت تاركًا ورائي أكياس متاعي، مكتفيًا بما حملته من هموم وأحزان وغموم..

دخلت البيت، وحالي يرثى له، وأدرك إخوتي وأمي أن خطبًا ما لا قد أصابني، فسارعوا يسألوني:

- ما بك؟ ماذا أصابك؟

تنهدت، وقلت بصوت خافت حزين، لا شيء، لكني متعب وأحتاج أن أستحم، وألقيت لهم ما في جيبي من نقود، وتوجهت نحو الحمام وهم ينعتوني بنظرات الاستهجان والاستغراب.

أقفلت باب الحمام على نفسي، وطفقت أبكي كطفل صغير، كم كنت أود أن أرتمي بحضن أمي وأبكي وأشكي لها همي، وأبث لها

مصابي، لكنـي لا أقـدر أن أظهـر أمامهـا ضعفـي واسـتكانتي وهي التي تـرى فيّ ابنهـا الرجـل القـوي، الـذي تسـتند إليـه وتلجـأ سـاعة الشـدة والحاجة.

رحـت أسـكب المـاء الحـارة تـارة والبـاردة تـارة، والصابـون أخـرى على خـدي عـلَي أمحـو أثـر تلـك الصفعة لكـن دون فائـدة، فقلبـي وروحي هـما مـن أصابهـما القرح، وليـس لجرحهـما دواء.

خرجـت مـن الحـمام فوجـدت أمـي بانتظـاري، أمسـكتني مـن كتفـي وقالـت لي:

- اطّلع فيّ..

لم أقدر أن أنظر في عيني أمي، وبقيت مطأطئ الرأس، فهزتني بحزم.

- ماذا دهاك، قل ما بك؟

- مـا بي مـن شيء، كل مـا في الأمـر أن جنـود الاحتـلال اسـتوقفوني وأنـا عائـد إلى البيـت واعتـدوا عـليّ بالـضرب.

- شـلت أيديهـم، لعنـوا بمـا فعلـوا، هـون عليـك يا ولـدي فهـم يفعلون ذلـك مـن غيظهـم لمـا فعلـه بهـم «المهنـدس» سـلمت يـداه، اعتـذرت مـن أمـي، وقلـت لهـا إننـي متعـب وأشـعر بحاجـة إلى النـوم، تمـددت في فـراشي ودفنـت رأسي في غطـائي، وعـدت أتحسـس خـدي، والدمـع يسـح مـن عينـي، ثـم وجدتنـي فجـأة أتلـو في صـدري آيات من سـورة المدثـر، حتـى بلغت قولـه تعالى: « ولربك فاصـبر» فرحت أواسي نفسي، وأحملهـا عـلى الصـبر في سـبيل اللـه، وأمنيهـا بأني لا بـد يومًـا أن أنتقم،

وذلك اليوم لا بد أن يأتي، ما دمت قد هيأت نفسي له – فلن يخلف موعده معي، لا بد أن يأتي.. آه، أين أنت أيها «المهندس»؟

آه لو أجد سبيلًا إلى لقياك، لوضعت نفسي تحت أمرك ورهن إشارتك، أعدائي وأعدائك، أعداء الله البغاة الظالمين.

كنت يومها مع مجموعة من الإخوة نتسامر في بيت أحد الأصدقاء وفجأة دخلت علينا أمه باكية نائحة، فظننا للوهلة الأولى أن زوجها أو أحد أولادها قد مات، لكن المصاب كان أعظم!

انتابنا أن «المهندس» يحيى عياش قد استشهد.

فوقع علينا الخبر كالصاعقة، أذكر أنه كان في يدي زجاجة عطر، فقذفتها أرضًا حتى تناثر الزجاج في كل مكان.

وخرجت مع رفاقي من البيت نهيم على وجوهنا يملأ الحزن قلوبنا ويستحوذ الغضب علينا، حزنت فلسطين كلها على «المهندس» لكنه حزن الخليل كان مميزًا، لم ينس أحدًا من أبنائها، ولا أحسب أنه يمكن أن ينسى يومًا «المهندس» يحيى عياش الذي ثأر لدماء أبناء الخليل وشفى صدور أهلها، كيف لا، وله في عنق كل حر يد سلف ودين مستحق.

ثم رأينا أن نسافر إلى بيت الشهيد عياش في قرية رافات فنواسي أهله ونشد من أزرهم، ونقدم واجب العزاء لهم، وأقمنا هناك ثلاثة أيام.

ثـم عدنـا إلى الخليـل باحثـين عـن وسـيلة للانتقام، فـم نجـد أمامنا غير الحجـارة، فأخذنـا نفـرغ غضبنـا وحنقنـا عـلى المحتلـين بقذفهـم بهـا، والحجـارة سـلاح مـن لا سـلاح لـه، فهـي دائمًـا في متنـاول يـدك.

الزواج

لا أنكـر أني كنـت كباقـي الشـباب أحلـم بالـزواج، لكني ما كنـت أتوقع أن يحصـل هـذا الأمـر لي بهذه السرعـة، وعلى هـذا النحو.

الفكـرة ولـدت ونضجـت في رأس أمـي، حيـث بـدا لهـا من بعد مـا رأته مـن تعلقـي بالمقاومـة، وحبـي للجهاد في سـبيل الله أن لا سـبيل لصرفي عـن هـذا الأمـر إلا بالـزواج، فعرضت على الأمـر قائلة:

- سـأبحث لـك عـن فتـاة تناسـبك «مـن ثوبنـا» لنزوجـك، علـك تهـدأ، ويصلـح حالـك.

فرفضـت ذلـك بشـدة، وقلـت لهـا: دعيـك مـن هـذا الأمـر، فأنـا عرضة لأن أستشـهد أو أعتقـل في أي لحظـة، ولا أريـد أن أظلـم بنـات النـاس معـي، لكـن أمـي لم تيـأس، ولم تمـل، ظلـت تعـاود طرح الموضـوع علي حتـى لنت.

وفي يـوم مـن عـام سـتة وتسـعين، اصطحبتنـي أمـي لزيـارة بيـت خالي في القـدس، وظننـت أنهـا زيـارة عاديـة «روتينية» إلا أن أمـي كانت قد دبـرت لي أمـرًا بليـل؟ فـما كدنـا نجلـس قليـلًا فاجأني خـالي بقوله:

- هل أنتم مستعدون؟

نظرت إليه باستهجان، وقلت: مستعدون؟ لماذا؟

- الناس ينتظروننا، ألم تخبرك أمك؟

- تخبرني بماذا؟

- بأنا سنذهب لنخطب لك.

- ماذا؟

هيا، هيا، لا تكن كالنساء «ويمتنعن هن الراغبات» وانطلقنا إلى بيت عائلة زوجتي «عائلة طه» ووجدنا والد الفتاة متفاجئًا من طلبنا، لأنه وعائلته ما زالوا يعيشون حالة حزن وحداد على استشهاد ابنهم «شقيق الفتاة» الذي استشهد في أحداث «هبة النفق».

وأذكر أن والدها سألني يومها:

- لماذا اخترت الزواج من ابنتي بالذات؟

فارتبكت أيما ارتباك، ولم أدر ما أجيبه، ثم خطر لي أن أقول:

لأنها أخت شهيد، والشهداء هم صفوة الناس وخير الناس، وأنا أتشرف بنسبكم.

فوافق والدها عليّ، وأتاح لي الجلوس مع ابنته قبل الخطبة، فقلت لها:

- أود أن أعرفك على نفسي، قبل أن ترتبطي بي، كي لا تقولين – مستقبلًا

– إنني خدعتك وغررت بك، أنا رجل متيم بأخرى، أعشقها بجنون، ولأجلها مستعد أن أقدم روحي ودمي.

فامتقع لون وجهها، واشتاطت غضبًا، لكن سرعان ما برد غضبها، وعاد وجهها وهلل، وعادت البسمة ترسم على محياها، عندما بينت لها أن عشيقتي الأخرى هي «فلسطين» وأضفت قائلًا: اعلمي أنني قد أسجن أو استشهد في أي وقت، فقطعت كلامي قائلة:

- إن شاء الله لن يصيبك أي مكروه، والله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين، والأمر لله من قبل ومن بعد، والذي يقدره لنا نؤمن به.

وتزوجنا فكانت «أم قتيبة» نعم الزوجة والصاحبة والرفيقة «لم يخالط صفاء ودها كدر»، عشت معها أيامًا مليئة بالسكينة والطمأنينة والألفة والمودة، كانت أسعد أيامي حياتي، ولا أذكر أن الحياة قد جاءت علي بأيام سعد غيرها.

فكانت بمثابة «وقت مستقطع» من سجل حياتي المصبوغ بالبؤس والشقاء.

«كانت الفرحة» حدثًا غير معهود عندي، لم يسبق أن جربته أو عشته! وكانت ذروة إحساسي بالسعادة والفرحة، عندما بشرت بمولودي البكر «قتيبة» الذي أراد أبي تسميته «محمدًا» لكني أصريت على تسميته «قتيبة»، واعداً أبي أن أسمي الولد الثاني «محمداً» وأحمد الله أن رزقني به لاحقاً ووفيت بوعدي، وكنت قبل «محمد» قد رزقت بابنة أسميتها «نادية».

رغـم زواجـي إلا أن نشـاطي في الانتفاضـة وفي حركـة حـماس اسـتمر كالمعتـاد، ولم يتأثـر بالمطلـق، لم تفـتر عزيمتـي ولم تخـب نـار الانتقـام والثـأر مـن الأعـداء وبقيـت تتأجـج في نفـسي، حتـى أننـي حاولت بعد زواجي مباشرة شراء مسـدس وتنفيذ عملية بمفردي، إلا أنني اكتشـفت بـه خلـل «فأعدتـه إلى صاحبه».

ومـن الطرائـف التـي حدثـت معـي بدايـة الـزواج، أن الحركـة كلفتني يومًا للخروج في السـاعة الثانية ليلًا لتزيين المسـاجد بشـعارات حماس، بمناسـبة العيـد، فاسـتيقظت في الوقـت المحـدد وتجهـزت وهممـت بالخـروج، فاسـتيقظت زوجتـي وحاولـت منعـي مـن الخـروج، ولكنني أصريـت وخرجـت، ولمـا عـدت إلى المنـزل صباحًـا وجـدت والـدي بانتظـاري، وراح يؤنبنـي.

ألا تريـد أن تعقـل؟ أنـت لم تعـد صغـيرًا، احنـا زوجنـاك حتـى تهـدأ و»تركـز»، لكـن يبـدو أنـه لا فائـدة ترجـى منـك!

الالتحاق بصفوف كتائب القسام

أخيراً.. وبطريقة ما وصلتني رسالة من كتائب القسام يحددون لي فيها موعدًا للالتقاء بهم، ذهبت إلى مكان اللقاء (قرب جامعة الخليل) في الوقت المحدد، وكان ذلك عام ألفين وما إن وصلت المكان حتى جاءت سيارة، وأشار إلى من بداخلها للركوب معهم، فركبت، فطلبوا مني استبدال ملابسي بأخرى كانت معهم، ففعلت، ثم وضعوا عصبة على عيني وطلبوا مني أن أخفض رأسي كي لا أرى الطريق التي ستسلكها السيارة، وسارت بنا السيارة مسافة ليست بالطويلة ولا بالقصيرة، حتى وصلنا إلى بستان كثيف الأشجار، فأنزلوني هناك ورفعوا العصبة عن عيني، فإذا بمجموعة من المسلحين المقنعين بانتظاري، رحبوا بي، وعرفوا على أنفسهم أنهم ينتمون لكتائب القسام ثم قال لي أحدهم:

- أتود الانضمام إلينا؟

- بالطبع، منذ سنين طويلة وأنا أنتظر هذا اليوم، إنها أمنيتي وحلم حياتي.

- وهل أنت مستعد لتنفيذ كل ما سيطلب منك؟

- على أتم الاستعداد.

- حتى لو كان في ذلك استشهادك؟

- الشهادة أمنية نسعى إليها ونطلبها ولا نحجم خوفًا وحذراً من وقوعها.

- لكن عليك أن تعلم أن العمل العسكري ليس كالعمل في فعاليات الانتفاضة، إنه يتطلب سرية تامة مطلقة ودقة متناهية، وانضباطًا كاملًا، رب كلمة تخرج من لسانك لا تلقي لها بالاً، تهوي بك وبغيرك من إخوانك عمرًا في السجن أو القبر.

وهو ما قد يفعله بك عدم الانضباط والارتجال، ثم افترقنا بعد أن اتفقنا على لقاء آخر بعد أسبوع.

وبعد يومين جاءني أحد الإخوة وسألني:

- هل استطعت الوصول إلى الكتائب؟

فرددت بالنفي، فقال:

- تذكر أن بيني وبينك عهد وقسم أنه من يصل إلى الكتائب أولًا يبلغ الآخر.

وكنا فعلًا قد تعاهدنا على ذلك فوجدتني مضطرًا أن أخبره، فقلت له:

- قد وصلت، ولي موعد قريب معهم وسأصحبك معي للقائهم، وذهبنا إلى المكان المحدد للقاء «القسام» وانتظرنا ساعات طوال، فلم يأتِ أحد!، وعدنا أدراجنا نجر أذيال الخيبة، ووقع في نفس صاحبي أنني غير صادق، وأنني غررت به وخدعته، أما الجهاز العسكري، فقطعوا اتصالهم بي وأرسلوا لي بعد أيام رسالة مفادها:

لقد فشلت في أول اختبار لك، لو كنا نريد تجنيد صاحبك لفعلنا، فهو لم يكن غائبًا عن أعيننا، فكما وصلنا إليك أمكننا الوصول إليه، وقد أبلغناك أن العمل العسكري يتطلب سرية تامة، وأنت لم تلتزم بذلك، فهذا فراق بيننا وبينك.

وبعد زواجي بفترة وجيزة عملت مع شقيق زوجتي في مطبخ للمتدينين اليهود في حي «دير ياسين» في القدس، انتقلت للسكن في مخيم شعفاط، شمال مدينة القدس، وكنت أذهب إلى الخليل يومي العطلة «الجمعة والسبت» فقط، في هذه الأثناء كانت انتفاضة الأقصى في أوج قوتها وعنفوانها، وكنت كل يوم آسي على ما فاتني عاضًا أصبع الندم على تضييعي الفرصة التي سنحت لي بالانتماء للقسام، واستمر بي هذا الحال حتى عام 2003م.

وفي يوم فكرت أن أروح عن نفسي، وأتحرر من حالة الكآبة التي تلازمني، وضغط العمل والمسؤولية التي تثقل كاهلي، وتوجهت في رحلة استجمام لبحيرة طبريا، وقفت أمام البحيرة أمتع نظري بصورة بديعة ساحرة، غاية في الروعة والجمال «صنع الله الذي أحسن كل شيء خلقه» حيث أشعة الشمس الذهبية تضرب صفاء الماء، فتبدو

كمرآة كبيرة مصقولة تعكس الأشعة، وحركة تيارات الماء الهادئة المضبوطة في مدها وجزرها، مقبلة نحوي بانسياب وسلاسة، كأنما تناديني: هلمّ إليّ، الق نفسك في حضني، أغسلك من كل همومك وأحزانك، أنقيك من كل ما يكدر خاطرك، ويعكر صفو نفسك.

ورحت أخلع ملابسي، ملبيًا النداء، فإذا بهاتفي «الخلوي» يهتز، أخرجته من جيبي، ورددت، فكان أحد الإخوة يبلغني أن هناك ما يستدعي وجودي بالخليل في أسرع ما يمكن، أعدت عليّ ملابسي، وغادرت على عجل إلى الخليل، ولما وصلت الخليل، تلقيت رسالة فيها عنوان ينبغي علي التوجه إليه، توجهت إلى العنوان، وهناك التقيت بشابين من كتائب القسام مجموعة الشيخ عبد الله القواسمي.

كانا يحملان أسماء مستعارة، أحدهما يدعى خميس والآخر جمعة، وبعد استشهادهما عرفت أنهما، أحمد بدر، وباسل القواسمة، فعرضا عليّ العمل مع مجموعتهما في مقاومة الاحتلال وبالطبع وافقت دون تردد، وكلفاني بأن أرصد لهما أماكن غربي القدس تناسب تنفيذ عمليات استشهادية.

غادرت الخليل، وعدت إلى القدس، وفرحتي لا تكاد توصف، أخيرًا سآخذ بثأري وأشفي صدري من القوم الظالمين الذين نهبوا أرضي وقتلوا أحبتي، وأذلوني وامتهنوا كرامتي، أخيرًا سأرد الصفعة بأشد منها وأكثر إيلامًا.

وبدأت عملية الرصد، وحددت الأماكن المناسبة لتنفيذ عمليات

جهادية، وساعدني في ذلك حيازتي بطاقة هوية مقدسية «زرقاء» واشتريت للمجموعة ملابس خاصة بالمستوطنين والمتدينين اليهود، وأطواقًا من سلاسل معدنية تحمل نجمة داوود السداسية، وكنت ألتقي أفراد المجموعة مرة في الأسبوع، أتلقى التعليمات الجديدة، وأقدم لهم تقريرًا مفصلًا حول نشاطي خلال الأسبوع، وجاءت اللحظة الحاسمة، اللحظة التي أنتظرها مطولًا، اللحظة التي حلمت بها في يقظتي ومنامي، اللحظة التي لولا تعلقي بأمل مجيئها يومًا من الأيام لقضيت قهرًا وكمدًا.

أبلغني الإخوة أننا سننفذ عملية استشهادية في القدس ردًا على عمليات الاغتيال الجبانة التي نفذتها قوات الاحتلال وأجهزتها الأمنية بحق قيادات المقاومة، واتفقنا أن يرسلوا إلي «استشهادياً» كي أوصله إلى الموقع المطلوب، وحددنا مكان وزمان اللقاء.

الزمان: يوم السبت الساعة الخامسة مساء.

المكان: قرية أبو ديس، شرق القدس، أمام بنك القاهرة عمان.

الخميس كان حفل زواج صهري «شقيق زوجتي» وكانت فرحة العائلة خاصة زوجتي، وأولادي كبيرة جدًا، فلبس الأولاد أجمل الثياب، وتزينوا، وراحوا يختالون أمامي ويتنططون ويمرحون ويلهون ويلعبون مما زاد من تعلقي بهم وعشقي لهم.

وسرعان ما انصرم الخميس حتى جاء الجمعة وكان يوم عطلة، التمت فيه العائلة داخل البيت، وشعرت فجأة بأن تغيرًا جذريًا قد

حدث في حياتي، أحسست «بالبؤس» يفارقني إلى غير رجعة، وتحل مكانه الفرحة والبهجة والسرور، نظرت إلى نفسي وحولي عائلتي كأنما حيزت لي الدنيا، فما عدت أطمع منها بمزيد، عندي زوجتي المخلصة الصالحة الوفية، وأولادي الذين هم مثل الزهور، عبقًا وحسنًا ونضارة، وأنا وسطهم كالملك المعظم المبجل، شعرت في تلك اللحظة كطائر يحلق فوق بستان محلى بالورود والزهور، وألفيتني منشرح الصدر هادئ البال، مطمئن القلب، ثم تذكرت ما أنا مقدم عليه في غدٍ وبعد غد، وحاك في نفسي شيء من التردد، وجال في خاطري وفكرت جديًا بالتراجع، ووقف تنفيذ العملية.

وأخذ الشيطان بنفث وساوسه في نفسي قائلًا:

لمن ستترك هؤلاء الصغار؟ وكيف سيكون حلمهم من بعدك إن أسرت أو استشهدت؟

لكن سرعان ما طرد القرآن وساوس الشيطان، وعندما ذكرت قوله تعالى: «المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابًا وخير أملًا» وأدركت أنني الآن في لحظة فتنة وابتلاء، وأن «البؤس» إنما انسل من حياتي هذه اللحظة كي يسهل على الشيطان الإيقاع بي في الفتنة، كيما أنكص على عقبي، وأقول: فليقاتل غيري.. لماذا أنا؟

ثم رحت أستحضر من مخزون ذاكرتي كل مآسيّ وآلامي التي تسبب لي الاحتلال بها، وما أكثرها، تذكرت أخواي اللذين استشهدا في بطن أمي، وتذكرت شهداء مجزرة الحرم الإبراهيمي وابن عمي أحدهم،

وتذكرت أصدقائي الشهداء، وتذكرت والذكرى مؤرقة تلك الصفعة التي وجهتها لي «المستوطنة الفاجرة» وتذكرت ما قطعته على نفسي من عهود الثأر والانتقام.

فقلت في نفسي، وأنا أرمق زوجتي وأولادي بنظرات مليئة بالحب والإشفاق، فلتسامحوني، فإني والله لأحبكم، لكني لا أملك إلا أن أكون مجاهدًا، لا أجد لنفسي عذرًا أن أتخلف أو أقعد، ولئن تخاذلت أو تقاعست اليوم، لأعيش طوال حياتي ذليلًا مهينًا، سأفعل بنفسي أشد وأنكى مما يمكن للأعداء أن يفعلوه بي، سأقتل في نفسي المروءة والنخوة والشهامة والعزة والكرامة.

فأي قيمة للحياة بعد ذلك؟ لميتة كريمة أحب إلى نفسي من حياة ذليلة.

وليس بحر من إذا رام غاية ** تخوف أن ترمى به مسلكًا وعرًا[3]

(3) الجواهري

الرد المزلزل

وجاء السبت ودقت ساعة الجهاد، واقترب الوعد الحق، وبدأ العد التنازلي، ساعات فقط تفصلني عن بلوغ ثأري، ساعات ويفرح المؤمنون، ويساء صباح القوم الظالمين.

توجهت إلى «أبو ديس» فوجدت الشاب قد سبقني إلى المكان، جاء قبل الموعد متعجلًا كأن لسان حاله يقول: «وعجلت إليك ربي لترضى»، وعرفته من خلال لباسه، أو كان قد اتفقنا أن يلبس ثيابًا سوداء، ويعتمر قبعة حمراء اللون مرسوم عليها حرف (S).

اقتربت منه، وألقيت عليه السلام، فرد التحية بأحسن منها، فقلت له :

- كم الساعة؟

قال: الساعة خربانة

وكانت هذه كلمة السر بيننا، فرحت به وصحبته إلى موقف وسائط النقل العام، واستقلينا سيارة إلى قرية عناتا «شمال شرق القدس»

وحرصنا ألا نكثر الكلام داخل السيارة، وأن نتصرف على نحو طبيعي، دون تشنج أو تكلف حتى لا نثير انتباه سائق السيارة، وصلنا «عناتا» ونزلنا من السيارة، ومنها أتممنا طريقنا مشيًا على الأقدام إلى منزلي في مخيم شعفاط المجاور، وصلنا البيت حوالي الساعة السادسة والنصف مساءً، ولم نكن قد صلينا العصر بعد، فأقمت الصلاة وتقدم «الفتى» وأمَّ بي، وقبل أن يكبر تكبيرة الإحرام تمتم بصوت خافت وهو يبتسم «شغلونا عن الصلاة الوسطى.. «صلاة العصر» أرجو أن ينزل الله نقمته بهم على أيدينا، كما أنزلها على أجدادهم «بني قريظة» على يد رسول الله _صلى الله عليه وسلم_.

وبعد الصلاة عاد الفتى مسرعًا ليحتضن بين يديه باقة من الورد، كان جاء بها معه وكنت ظننت -لسذاجتي- أن الإخوة قد أرسلوها معه هدية لي! لكن سرعان ما تبددت ظنوني عندما طلب مني أن أحضر له «إبرة وخيط» ومصحفًا، أحضرت له ما طلب ووقفت أرقب ما سيفعله عن كثب، فإذا به يخرج الورود من السلة الجميلة، ثم يخرج من داخلها «حزامًا ناسفًا»! فتملكني شعور قوي بالخوف والرهبة، وقلت في نفسي «الله يستر ما ينفجر فينا فيدمر المنزل فوق رؤوسنا»، فإذا به يبتسم ويقول:

- لا تخف، لن أعبث بالمواد والأسلاك، فقط سأخيطه ليكون مناسبًا لي عندما ألبسه، وفيما كان التوتر والاضطراب يسيطر عليّ، كان _رحمه الله_ دائم الابتسامة، مطمئن النفس، هادئ الأعصاب، رابط الجأش، يخيط الحزام بكل أريحية كخياط محترف، وكأنه يخيط ثياب زفافه

فلـما أنهى الخياطـة، قلت له:

- سأذهب لأحضر لك شفرة لتحلق لحيتك.

فقال:

- دعـك مـن ذلـك، أحب أن ألقى اللـه ملتحيًا، وابتسـم وأضاف: أحلقها في الجنة «إن شـاء الله».

من الضروري أن تحلقها حتى تنجح العملية.

- إن لم يكن من ذلك يد فأجري إلى الله.

أعطيتـه الشـفرة وذهبـت لأحـضر لـه «معجـون الحلاقـة» مـن حانوت قريـب، ولمـا وصلـت الحانوت، قـدح رأسي أمر جعلني أعـود مسرعًا إلى البيـت، فنظـرت إليـه، _رحمه اللـه_ فتنفسـت الصعداء وقلـت: لماذا؟

تذكـرت أن المتدينـين اليهـود لا يحلقـون لحالهـم في هـذه الأيـام مـن الشـهر, يحـرم عليهـم فعـل ذلـك، فابتسـم وقـال:

- ألم أقل لك إنني سأحلقها في الجنة؟

وكان الإخـوة قـد أوصـوني بعـدم الحديث معه في أي أمـر دنيوي، لكني خالفـت وصيتهـم، وسـألته عـن أهلـه وعـن الحجـة التـي قدمهـا لهـم حتـى يأذنـوا لـه بالتغيـب عـن البيـت: فقـال: طبعـت «كـرت دعـوة» موجهًـا مـن أحـد مسـاجد مدينـة رام اللـه يدعونـني فيـه إلى حضـور حفـل إسـلامي، وأرسـلته عـبر البريـد إلى عنـوان بيتنـا، فاسـتلمت أمـي الدعـوة، وأذنـت لي بالذهـاب والمبيـت هنـاك، هنـاك أخذتني مشـاعر

مـن الشـفقة والرحمـة عـلى هـذا الشـاب اليافـع الصغـير، وقلـت له:

- أنـت مـا زلـت شـابًا في مقتبـل العمـر، فـلا تفجـع أمـك بـك، مـا زلنـا «عـلى الـبر» بإمكانـك التراجـع عـن هـذا الأمـر، والعـودة إلى أحضـان عائلتـك.

فقاطعني بحزم، متفاجئًا من كلامي، وقال:

- مـا هـذا الـذي تقـول؟ أنـت لا تعـرف كـم بذلـت مـن جهـد وعانيت وتعبـت حتـى أتيحـت لي هـذه الفرصـة، لأنال الشـهادة في سـبيل الله، واليـوم وبعـد أن أصبحـت قاب قوسـين أو أدنى من تحقيـق حلمي، تأتي أنـت لتقنعنـي بالتراجع!؟

هيهـات هيهـات، فـإني والله لأجـد ريـح الجنـة، ومـا بينـي وبينهـا إلا بضـع خطـوات وبضـع لحظات، هنا اسـتصغرت نفسي أمـام عظمة هذا «الفتـى» الشـهيد الحـي، وحاولـت تعديـل الموقـف فقلت:

- بـارك اللـه فيـك، وتقبـل منـك، وجمعـك مـع النبيـين والصديقـين والشـهداء والصالحـين، وحسـن أولئـك رفيقًـا، ربط الله عـلى قلب أمك وألهمهـا الصـبر والسـلوان.

في هـذه الأثنـاء تذكـرت أن عـليّ الذهـاب إلى بيـت صهـري، حيـث مـن المقـرر أن تجتمـع العائلـة لتبـارك لشـقيق زوجتـي بزواجـه، ومـن الـضروري أن أحـضر ولـو لبضع دقائـق «إثبات وجود» فاسـتأذنت منه، وأخبرتـه أننـي لـن أتأخـر عليه.

ذهبـت إلى بيـت صهـري، وجلسـت مـع العائلة، فسـارع ابنـي «قتيبة»

إلى الارتماء في حضني قائلًا: أعطيني «شيكل»...

فمددت يدي إلى جيبي لأخرج محفظة النقود، فلم أجدها فتذكرت أني نسيتها في البيت، فوضعت «قتيبة» جانبًا واستأذنت، وعدت مسرعًا إلى البيت، باحثًا عنها، وسألت «الفتى» فقال:

- هاك ي سامر!

فتسمرت مكاني وأصابني الذهول والخوف، وخرجت مني -لا شعوريًا- كلمة «يا ويلي».

فضحك الفتى من حالي وقال:

- هون عليك، هون عليك، العملية ستنجح إن شاء الله يا أخي، وسيكون غدًا يوم استشهادي..

وبعد لحظات عاد ولداي «قتيبة، ونادية» إلى البيت وصعدا مسرعين إلى الطابق العلوي، حيث أنا برفقة «الفتى» وسارعا بإلقاء نفسيهما في حضني فقلت لهما:

- سلما على عمكما «الشيخ»

فدنيا منه، وسلما عليه، فاحتضنهما، وقبلهما، وراح يداعبهما ويلاعبهما، ويمازحهما فألفاه واستلطفاه، واستطاع بكل سلاسة وسهولة أن يجعلهما ينجذبان إليه ويتعلقان به، وكانا قبل ينفران من كل غريب.

وأقبل الليل، وأقبل صاحبي على كتاب الله يرتل منه تارة، ويصلي

بـه تـارة، واسـتمر عـلى هـذا الحـال حتـى آخـر الليـل، أمـا أنـا فكنـت مرتبـكًا مضطربًـا، مشـوش الفكـر، قد جفا النـوم عيني وأرقني السـهاد، فظللـت أتحـرك وأتنقـل، أجلـس حينًـا وأقـوم حينًا.

ثم دنا مني الفتى وقال:

- لي عندك حاجة..

قلت: مقضية -بإذن الله- إن قدرت عليها.

قال:

- أن تقرأ القرآن كاملًا على روحي وتهبني ثوابه.

ابتعلت ريقي، وامتقع لون وجهي، وصمت هنيهة، ثم قلت:

- إن الماثل أمامك، شبه أمي لا يحسن قراءة القرآن!

- أمعقول هذا؟

- هـو كذلـك -لكنـي أعـدك إن يـسر اللـه لي -يومًـا- تعلـم القـرآن أن أفعـل، وسـأطلب مـن الإخـوة في «مجموعتنـا العسـكرية» أن يفعلـوا ذلـك أيضًا.

مـرت تلـك الليلـة الطويلة المربكة عـلي دون أن يغمـض لي جفن، يثقل رأسي وتجـافى جنبـي عن مضجعـي تزاحم الأفكار، وحسـاب المآلات.

أمـا صاحبـي فاختلـس سـاعة من الليـل نامها بهـدوء وطمأنينـة، وكنت أنظـر إليـه ويتملكنـي العجـب: كيف يقدر مـن يعلم أنه سـيكون بعد سـاعات قليلـة قطعًـا متناثـرة، أن ينـام ويغمـض لـه جفن؟ هـل يعقل

أن يكـون هـذا «الفتـى» إنسـيًا مثـلي؟ أي سـحر هذا الـذي يجعل فتى في مقتبـل العمـر يـشري حيـاة فاتحة لـه ذراعيها، مقدمة لـه كل متعها وشـهواتها، مسـتعرضة له كامـل زينتها، بعد أن ذاق منهـا وعرف لذتها، بأخـرى هـي في عـالم الغيب، لم يرها ولم يذق شـيئًا مـن جناحها ومتعها ولذاتهـا؟ مـا الـذي يدفعـه إلى أن يـشري الحـاضر الموجـود، بالغائـب الموعـود؟ إنـه الإيمـان الصـادق –لا ريـب- اللهـم أذقنـي لذتـه حتـى تطمـئن نفـسي كـما اطمأنـت نفس هـذا «الفتـى»، وحتى يخشـع قلبي كـما خشـع قلبـه، وحتى تسـمو روحـي كما سـمت روحه.

ثـم أذن مـؤذن لصلاة الفجـر، فقمنـا للصـلاة، تقـدم «الفتـى» وأم بي، وراح يتلـو آيـات «الشـهادة والشـهداء» من سـورتي البقـرة وآل عمران: ولا تحسـبن الذيـن قتلـوا في سـبيل اللـه أمواتًـا بـل أحيـاء عنـد ربهـم يرزقـون، فرحـين بمـا آتاهـم اللـه مـن فضلـه ويسـتبشرون بالذيـن لم يلحقـوا بهـم مـن خلفهم ألا خـوف عليهم ولا هم يحزنون، يسـتبشرون بنعمـة مـن اللـه وفضـل وأن اللـه لا يضيـع أجـر المؤمنـين».

بصـوت عـذب شـجي نـدي، كأنمـا أوتي –بحـق- مزمـارًا مـن مزامـير داود _عليـه السـلام_، كان يقـرأ بقلبـه لا بلسـانه، فتلقـاه قلبي مباشرة وتفاعـل معـه وتأثـر بـه، شـعرت كأنما أسـمع القـرآن لأول مـرة بحياتي.

اقشـعر جلـدي، ثـم لان قلبـي وجلـدي لذكر الله، وأحسسـت بخشـوع حقيقـي، وانسـابت مـن عينـي الدمـوع، كانـت صـلاة مـودع للدنيـا، مقبـل عـلى الآخـرة، صـلاة شـاب تقـي نقـي معلـق قلبـه بحـب دينـه ووطنـه، يرجـو رحمـة ربـه «يا اللـه» إني أصـلي خلف رجل عـما قريب

سيفارق الدنيا ويصبح من أهل الآخرة، عما قريب سيكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

يا الله، أنا الآن أصلي خلف رجل من أهل الجنة ومن يومها إلى يومي هذا لا أحصي كم صلاة فجر صليتها خلف آلاف الرجال، فلا صلاة منها كتلك الصلاة.

إذ كيف لك أن تجد بين أهل الأرض – اليوم – مخلصًا لله إخلاصًا تامًا، صادقًا صدقًا مطلقًا، مؤمنًا إيمانًا كاملًا، موقنًا يقينًا جازمًا؟

لا يمكن أن تجد ذلك إلا في رجل مودع للدنيا، مقبل بكليته على الآخرة، راغب بها رغبة صادقة حقيقية.

الساعة الخامسة صباحًا، أخذنا نتجهز ونتهيأ للخروج، فسارع الفتى بإعطائي أربع صور له تلخص مراحل حياته، واحدة وهو في سن الخامسة، والثانية وهو في سن الثامنة، والثالثة وهو في السنة الثالثة عشر والرابعة وهو في سن التاسعة عشر، وطلب مني أن أضعها في «برواز» وأقدمهن لأمه، فوعدته أن أفعل.

تزنر «الفتى» بالحزام الناسف، وارتدى فوقه لباس المتدينين الصهاينة، ثم ألبسته معطفًا ليستر به ما تحته، حتى نصل مناطق سكن اليهود.

خرجنا مشيًا على الأقدام، وسرنا نحو ساعة حتى بلغنا غايتنا، منطقة «المشارف» التي سميت بذلك لأنها تشرف على مدينة القدس، أما

اليـوم فأصبحـت تعـرف ب «التلة الفرنسـية» هناك أرسـل الفتى ناظره أبعـد مـا يمكـن أن يصـل إليـه من مدينـة القـدس، زهرة المدائـن وتمتم قائـلًا: وداعًـا يـا قـدس يـا حبيبتـي يا مـسرى حبيبي رسـول اللـه _صلى اللـه عليـه وسـلم_، عـزائي أني إذ أفارقـك، سـألتقي بمـن شرفـت بزيارته لـك، وأرجـو الله أن أكون قد أعذرت، إذ قدمت نفسي شـهيدًا في سـبيل الله عـلى أبوابك.

وكنـا كلـما اقتربنا من هدفنـا ازددت توترًا واضطرابًا وازداد هو حماسـة وطمأنينـة، ولم تفارق البسـمة محياه مطلقًا،

وقبيل لحظة الوداع، قلت له:

- لي رجـاء عنـدك، أن تشـفع لي يـوم القيامـة.. وابتسـم وقـال: لا أعـدك لأن قائمـة مـن سأسـعى لأن أشـفع لهـم طويلـة، فـإن وجـدت متسـعًا لـك، فعلـت، وإلا فلتعـذرني، ابتلعـت ريقـي، وقلـت في نفـسي حتـى في هـذه، لا حـظ لي!!

ثـم تصافحنـا، وتعانقنـا بحـرارة، وودعتـه قائـلًا: ديـر بالـك عـلى حالك فضحـك مـلء شـدقيه وقـال: أنـا ذاهـب لأفجر نفـسي، وأنـت تقول لي:

- دير بالك على حالك!!

فابتسـمت مـن حماقتـي، وامتزجـت بسـمتي بدمعـات حرى انسـابت مـن مقلتـي،، وتقـدم هـو إلى الأمـام، يعـرف بدقـة طريقـه، وغايتـه، ومصـيره، وعـدت أنـا إلى الخلـف في ذهـول وحيرة، هائمًا عـلى وجهي لا أدري إلى أي مصير سـتقذف بي المقاديـر.

وكنـت قـد أوصيتـه أن يفجـر نفسـه في المحطـة الثالثـة حتـى تكـون الحافلـة قـد امتـلأت بالـركاب، وإذا مـا تحـدث أحـد معـه بالعبريـة فليجبـه بالإنجليزيـة فهـو يجيدهـا، وقبـل أن أصـل منـزلي أهـم أذني صـوت انفجـار ضخـم، فأدركـت أنـه قـد فجـر نفسـه عنـد أول محطة، ولم ينتظـر حتـى يبلـغ المحـة الثالثـة!

دخلـت المنـزل وأهـل بيتـي مـا زالـوا نيامًـا، فأغلقـت بـاب الغرفـة عـلى نفـسي وفتحـت جهـاز التلفـاز، ورحـت أتابـع البـث المبـاشر مـن مـكان العمليـة، وقـد أجهشـت بالبـكاء حينهـا، تقديـرًا وتوقـيرًا لـروح ذاك الشـاب الفتـى البطـل المغـوار، وفرحة بنجـاح العمليـة والنيل من الأعـداء الظالمـين.

وبـدأت المحطـات الإخباريـة تنقـل الأنبـاء تباعًـا، تحدثـت بدايـة عـن قتيلـين ثـم أربعة إلى أن اسـتقر الأمر على رقم «سـبعة وثلاثين» جريحًا، وفي ذات اليـوم وقعـت عمليتـان أخريـان، واحـدة في مدينـة الخليـل قـرب الحـرم الإبراهيمـي، وأخـرى عـلى حاجز بجنـود الاحتـلال في بلدة «الـرام» شـمال القـدس، وعلمـت أن الاستشـهاديين كانـا يرتديـان لباس «المتدينـين اليهـود» الذي كنت قد اشـتريته للمجموعة العسـكرية التي أنتمـي إليهـا، وأكـد ظنـوني إعـلان «كتائـب القسـام» مسـؤوليتها عـن العمليـات الثـلاث، ومـن خلال الإعـلان عرفت أن صاحبي الاستشـهادي هـو: باسـم التكـروري (19 عامًـا) من مدينـة الخليل، طالـب في جامعة «البولتيكنيـك»، اسـتمريت في متابعـة الأخبـار، وأنا أسـتعرض في ذهني أفعـال وفظائـع الصهاينـة المجرمين بي، وبشـعبي الفلسـطيني وقلت في

نفسي: فلتذوقوا من ذات الكأس التي طالما أسقيتمونا منها: «أنتم من جلب هذا البلاء على أنفسكم فلا تلومونا ولوموا أنفسكم»..

ثم وجدتني فجأة أتحسس خدي مستذكرًا تلك الصفعة، وأنا أتمتم وأقول:

آه.. كم أتمنى لو أن تلك «الفاجرة» تكون من بين أولئك القتلى، فإن لم تكن، فلا شك عندي أنها تقاسي وتعاني ألم صفعتي الأشهر، صفعة الرجال الأحرار.

وتحسست خدي من جديد، ومن عجب أني لم أعد أجد أثرًا لتلك الصفعة!

وللقصة بقية

بعد نحو شهر من تنفيذ «العملية الاستشهادية» وبينما كنت عائدًا من محلي برفقة أَخَوَيْ زوجتي «نزيه وعامر» حوالي الساعة الحادية عشر ليلًا استوقف سيارتنا - فجأة - حاجز طيار لجنود وحرس الحدود الصهيوني على مدخل مخيم شعفاط، اقترب أحد الجنود مشهرًا سلاحه، وطلب منا إبراز بطاقات هويتنا، وعندما نظر في بطاقة هويتي طلب مني النزول فورًا من السيارة.

وكان حينها ابني «قتيبة» نائمًا في حضني، فوضعته بلطف على كرسي السيارة، وترجلت وأنا أودعه بنظراتي، وكنت أود لو أودعه بكلماتي وقبلاتي، لكني خشيت أن يستيقظ فيفزع ويلتاع عندما يرى جنود الاحتلال يقودونني إلى الاعتقال، وقد وقع في نفسي -حينها- أن فراقنا سيكون طويلًا.

أصعدني جنود الاحتلال إلى «الجيب العسكري» بعد أن قيدوا يدي ورجلي بالأصفاد، وعصبوا عيني، وانطلقوا بي نحو مركز تحقيق «المسكوبية» غربي القدس، وفي طريقنا شعرت أن «الجيب»، قد

توقف هنيهة في مكان «العملية الاستشهادية» في «التلة الفرنسية» ومع أن هذا التوقف كان عرضيًا، - كما تبين لي لاحقًا – إلا أنه أثار مخاوفي وجعلني أتوجس وأضرب «أخماسًا بأسداس» !!

وصلنا «المسكوبية» وهناك انهال عليّ جنود الاحتلال ضربًا وشتمًا وسبًا، ثم أوصلوني غرفة صغيرة وعروني من كل ملابسي وفتشوا جسدي تفتيشًا مذلًا ومهينًا لي، ثم نقلوني إلى زنزانة ضيقة محكمة الإغلاق منتنة، تنبعث منها رائحة كريهة ناتجة عن شدة الرطوبة، «وبقيت فيها حتى الصباح، لكن لا سوء المكان ولا كآبة المنظر شغلني»، ولكن كل فكري كان منشغلاً بما أنا فيه، وما ينتظرني وما سيؤول إليه حالي، وكيف سيكون وقع الأمر على زوجتي وأولادي وأمي وأبي وإخوتي، وهل سأصمد في هذه المحنة وأخرج منها بسلام أم أنها رحلة «ما وراء الشمس» إلى ما شاء الله؟؟

بقيت هذه الأسئلة تشغل فكري حتى جاء السجانون صباحًا واقتادوني إلى أحد مكاتب التحقيق، وهناك شبحوني على كرسي التحقيق، وقيدوا يدي ورجلي، ثم نزعوا الغطاء عن عيني، فرأيت ثلاثة محققين ماثلين أمامي، تقدم أحدهم وبادر بالتعريف على نفسه، أنه مسؤول ملف التحقيق معي، وراح يلقي على مسامعي «خطبة عصماء» محورها الحكمة، وتحكيم العقل، ومما قاله لي: أنت هنا اليوم تقف في هذا الموقف الصعب لأنك أخطأت، أنت «اجتهدت فأخطأت» حسبت أن تعمل ضد دولة إسرائيل دون أن تنكشف ونصل إليك، لكنك ارتكبت خطأ ما، فعرفناك، وبالتالي

قبضنا عليك، وليس أمامك الآن إلا أحد الخيارين:

إما أن تتصرف كرجل، وتعترف بخطئك، وتتحمل المسؤولية عما فعلته، وبذلك تختصر على نفسك طريقًا طويلًا من الآلام والعذابات والإهانات، أو تسلك طريق العناد والمكابرة، وتحاول التهرب من تحمل المسؤولية، وعندها ستضطرنا أن نتعامل معك بالقوة والعنف، وستدخل نفسك في طريق أوله العذاب والإهانة وآخره الاعتراف لا محالة، أناس كثيرون قعدوا مكانك هنا، منهم من استخدم عقله، فأراح نفسه وأراحنا، ومنهم من عاند واختار الطريق الصعب، فجلب على نفسه العذاب والإهانات، ثم عاد وطلب أن يعترف «ويخلص نفسه» فكنت أقول له: «مش كان من الأول أحسن لك يا ابن الناس» !! وختم كلامه متوجهًا إلي بالقول:

- شو قررت يا سامر !؟ بدك تقعد، ونتفاهم بالاحترام، «وأنا بوعدك بشرفي العسكري أن أحدًا لن يمس شعرة من رأسك» اللي عملته عملته، وانتهى الأمر، لا يمكن إعادة عقارب الساعة إلى الوراء، بس بشرط إنك تحط كل اللي عندك بالتفصيل دون أن تخفي شيئًا، أم تريد أن تجرب الطريق الآخر، الذي يدخله المعتقل وهو «حمار» ويخرج منه هو أرنب!!!

فرددت عليه قائلًا:

- أنا لم أفعل شيئًا، ولا أدري لماذا جئتم بي إلى هنا، وما الذي تريدونه مني؟

- أنت تعرف جيدًا لماذا أتينا بك إلى هنا؟ وما الذي عملته، عليك أن تقص القصة «بالمليح أو بالقبيح».

- أنا لم أفعل شيئًا، ولا يوجد عندي قصة أقصها.

هنا تدخل محقق آخر، كان يتقمص دور «المحقق السيئ الشرير» وقال:

- الظاهر أنه من النوع الذي بحب البهدلة والإهانة، راح أفرجيك كيف حتحكي غصبًا عنك؟؟

وتدخل المحقق الثالث الذي يتقمص دور «المحقق الطيب» وأدلى هو الآخر بدلوه، قائلًا:

- حرام تبهدل حالك عالفاضي، القصة انكشفت، ولم تعد أي فائدة من الإنكار،

وعاد «المحقق السيئ» القول:

- الزلمة حابب يجرب البهدلة، انت ليش زعلان؟

ثم بدأت جولات التحقيق بالصراخ في وجهي، والشتم والسب، والتهديد والوعيد، ثم الضرب غير المبرح، والشبح، لمدة ثلاثة أيام، وبقيت على موقفي: الإنكار التام.

بعد ثلاثة أيام من التحقيق اتخذوا قرارًا بإخضاعي «للتحقيق العسكري» فتعرضت للتعذيب الشديد جولات عديدة، بأساليب مختلفة، أسلوب كسر الظهر، ويعرف بالشبح على شكل «الموزة»

حيـث كانـوا يجلسـونني على كرسي الشـبح بحيث يكون جنبـي مواجهًا لظهـر الكـرسي وكان ظهـري مائـلًا للخلـف، ويـداي وقدمـاي مقيدتـان بالأصفـاد، ويصـل بينهـما قيـد ثالـث، حتـى لا أتمكـن مـن رفـع ظهري، لمـدة سـاعات طويلـة كانـوا يثبتوننـي عـلى هـذا الوضـع حتـى يـكاد ظهـري أن يشـل.

• **ضغط القيود على اليدين:**

كانـوا يضعـون في يـدي ثلاثـة قيـود «كلبشـات»، يفصـل بـين الواحـدة والأخـرى مسـافة صغـيرة، ثـم يأخذونـا بالضغط على هـذه القيود حتى تنغـرز في لحمـي وتحبـس الدم عـن المرور، ثم يأخـذون بتحريك أصابع يـدي حتـى أكاد أجن من شـدة الألم.

• **خلع اليدين:**

كانـوا يجلسـوني عـلى كـرسي صغـير مثبـت بجـوار طاولـة المكتـب، ويرفعـون يـدي مـن خلـف ظهـري عـلى الطاولـة وفيـما يتـولى أحـد الجلاديـن، تثبيتـي جالسًـا عـلى الكـرسي رافعًـا رأسي مسـتقيم الظهـر، يسـحب آخـر يـدي بقـوة نحـو حافـة الطاولـة حتى تشـكل يـداي على ظهـري زاويـة قائمـة، وكنـت أشـعر بانخـلاع كتفـي، وكان القيـد يدمـي معصمـي، وأنـا أتـألم وأتـأوه.

• أسلوب الهز:

كان يتقدم مني محقق ضخم الجسم، قوي اليدين، ويمسكني من تلابيبي ويأخذ بهزي بسرعة وقوة، فيتحرك رأسي سريعًا للأمام والخلف، ويتورم صدري من موضع مسكي بيديه، وكنت أعلم أن أحد المجاهدين قد استشهد نتيجة لهذا الأسلوب.

• أسلوب الخنق:

حيث كان يضع أحد الجلادين لاصقًا ورقيًا على إبهامي يديه، ثم يمسك بي من أسفل عنقي ويغرز إبهاميه في عنقي من الأمام حتى أشعر أني أكاد أختنق.

ونتيجة لهذا الأسلوب أغمى عليّ، وفقدت الوعي.. ولم أستفق إلا وأنا في «المشفى»، وبعد أن استعدت وعيي، عادوا بي مسرعين إلى التحقيق دون أن يقدم لي أي علاج.

وبدأت مرحلة جديدة من التحقيق، توقف التحقيق العسكري، وبدأ المحققون يسألونني عن قضايا محددة، ولم يكونوا حتى تلك اللحظة يظهرون لي طبيعة المعلومات التي يمتلكونها عني، إذ كانوا يريدون مني أن أبدأ أنا بالاعتراف والكلام، تحسبًا من أن يكون ما عندي من أعمال أكبر مما لديهم من معلومات، وبالتالي فإنهم يحرصون دائمًا على إبقاء السقف مرتفعًا غير محدد، لكنهم يجدون أنفسهم -أمام الإنكار التام- مضطرين لذكر ما لديهم من معلومات بصورة

تدريجيـة، حتـى يقنعـوا المعتقـل بالاعـتراف عندما يـدرك أنـه لا فائدة مـن الإنكار.

وهنـا اسـتنتجت أنهـم لا يعرفـون شـيئًا عـن علاقتـي بعمليـة «التلـة الفرنسـية» فتنفسـت الصعـداء، وحمـدت اللـه وارتفعـت معنويـاتي، وبقيـت مـصرًا عـلى الإنـكار فهـو الأسـلم.

وفي يـوم كنـت فيـه مقيـدًا على كرسي الشـبح في أحد مكاتـب التحقيق، جـاء المحققون، وقالوا لي: سـنحضر لـك الآن المفاجأة..!

فاضطربـت وارتبكـت، وأخـذت أفكـر فيـما يمكـن أن تكـون عليه هذه المفاجـأة، وإذا بالبـاب يفتـح، ويدخل أحد السـجانين وبرفقته ذلك الأخ مـن الخليـل الذي كنـت تعاهدت معه عـام (2000) أن الذي يصل أولًا للكتائـب يخـبر الآخـر، فلما رأيته قلـت في نفسي:

هو أنت، بئس الأخ، كم مرة علي أن أدفع ثمن خطئي، بالثقة فيه!؟

وسأله المحقق: هل تعرف سامر؟ فأجاب بـ: نعم.

وسـأله عـن علاقتـه بي، فقـص عليهـم القصـة، ثـم أخرجـوه بسرعة من المكتـب، وتوجـه إلي المحقـق بالقول:

- هـا.. مـاذا تقـول يـا سـامر؟ ألا زلـت مصرًا عـلى الإنـكار؟ عندها قلت في نفسي:

لا بـأس لـو اعترفـت لهـم بهـذه القصـة، فـما دام «سري الكبـير» في «الحفـظ والصـون» فـكل شيء يهـون!

ولم أدرِ أني بذلك أضع رجلي على سلم التنازلات، وما قدمت شيئًا فسيطمعون بالمزيد وسيظلون يطلبون،، ولن يشبعوا..

وهذا ما حدث معي، ظلوا يلحون علي، ويطلبون مني الاعتراف بالمزيد حتى عدت وقلت لنفسي:

لم لا أعترف لهم بهذا الشيء، لا يضرني كثيرًا في المقابل أتخلص من هذه الورطة وأبقي «سري الكبير» محفوظًا، فاعترفت لهم بتعليق ورفع الرايات وأعلام فلسطينية، فطلبوا مني ذكر أدق التفاصيل، وطلبوا المزيد، فأصريت أنه لا يوجد عندي أكثر مما ذكرت..

وهنا انتقل التحقيق إلى المرحلة الثالثة:

أوهموني أن التحقيق معي قد انتهى، وأنني سأنقل قريبًا إلى السجن بانتظار المحاكمة.

وضعت في زنازين الانتظار، وكنت في زنزانة انفرادية وبجواري سجين آخر في زنزانة مجاورة، لم أره ولم يرني، لكن أحدنا شعر بوجود الآخر، فأخذنا نتحدث مع بعضنا، وعرفني على نفسه وعرفته على نفسي، وذكر لي أنه قد اعتقل مرات في السابق، أما أنا فقلت له إن هذا هو أول اعتقال لي، فقال:

- احذر أن يأخذوك إلى غرفة «العصافير»

فسألته عنهم، فقال لي: هل أخذت الشرطة منك إفادتك وبصماتك؟

قلت: لا

إن عليك أن تبقى حذرًا، فإن نقلوك إلى أي مكان قبل أن تأخذ الشرطة إفادتك والبصمات، فهذا يعني أنك عند «العصافير» أما إذا نقلوك بعد ذلك فهذا يعني أنك منقول فعلًا إلى السجن.

وفي اليوم التالي جاء السجانون واقتادوني إلى مكتب كان فيه شرطيان، فسجلا إفادتي، ومضيت عليها ثم أخذوا مني بصمات يدي، وأعادوني إلى ذات الزنزانة، فدخلتها وأنا منشرح الصدر وناديت على صاحبي في الزنزانة المجاورة وأخبرته بما حدث معي، فقال لي مطمئنًا:

- هذا جيد،، قريبًا سينقلونك إلى السجن..

- هل سيأخذ ذلك وقتًا طويلًا؟؟

- لا أظن ذلك، يوم أو يومين حتى يوجدوا لك فراغًا، فالسجون في هذه الأيام فيها اكتظاظ من كثرة المعتقلين، وما إن انقضى ذلك اليوم حتى جاء السجانون صباحًا واقتادوني إلى قسم في معتقل المسكوبية مكون من غرفتين وساحة، في كل غرفة يقبع عشرة نزلاء.

ثم استقبلوني بحفاوة وترحاب، ووفروا لي كل سبل الراحة، الاستحمام، الطيب من الطعام، وملابس جديدة، ومكانًا مناسبًا للنوم، وحرصوا ألا يسألوني في أول يومين شيئًا عن قضيتي.

بعد ذلك جاءني أحدهم قائلًا:

- إن كان لديك ما تود أن توصله للإخوة في الخارج حول ما جرى معك في التحقيق، حتى يأخذ الإخوة حذرهم ويرتبوا أمورهم، بناءً على ما اعترفت به وما لم تعترف، فيمكننا أن نوصل ذلك، فعندنا

طرقنا الآمنة المضمونة ونحن على تواصل دائم مع الحركة في الخارج.

فقلت له:

- أشكرك على حرصك، لكن لا يوجد لدي ما أوصله للإخوة في الخارج.

وبعد يومين أو ثلاثة جاءنا نبأ استشهاد الشيخ المجاهد «عبد الله القواسمي» فحزنت لذلك كثيرًا، وزاد من همي وحزني، إلى أن جاءني ذلك الشخص مرة أخرى وهذه المرة يوجه معايير وبلغة أشد قال لي:

- أرأيت أين أوصلنا عنادك؟ لقد اغتالوا الشيخ عبد الله القواسمي، هذا كله بسبب الإهمال وعدم المسؤولية، لو أن كل أخ يخرج من التحقيق إلى السجن يبلغ إخوانه بكل ما حصل معه، بما اعترف وبما لم يعترف، لاستطاع الإخوة تدارك الأخطاء، وإعادة ترتيب أوراقهم، حكينا لك هذا وأنت رفضت التعاون معنا، وأعطيناك فرصة لترتاح وتطمئن، لكن لا يمكن الصبر عليك أكثر من ذلك، فليكن معلومًا لديك، أنه إذا أصاب أي مجاهد من الخليل أو القدس أي مكروه، فسنجعلك تدفع الثمن غاليًا، وستكون في نظرنا «جاسوسًا» للأعداء.

اهتز كل كياني عندما سمعت هذه الكلمات واغرورقت عيناي بالدمع، وانعقد لساني ولم أدر ما أقول، وشعرت بأني أكاد أختنق.

كيف يحدث لي هذا؟ كيف أعامل بهذه الطريقة وأتهم بالخيانة والعمالة، وأنا الذي قدمت كل ما أملك من أجل وطني ودِيني...

انزويت جانبًا وظللت أدعو الله أن يكشف هذا الهم والغم عني،

أما هم ففرضوا عليّ حالة «مقاطعة» ومنعوا جميع النزلاء من الحديث معي.

لم يطل الأمر، ففي اليوم التالي عاد إلي ذلك الشخص وقال لي:

- لدي اقتراح لك..

- وما هو؟

- ما رأيك أن تجلس مع «اللجنة الوطنية» في السجن وتتحدث أمامهم بما عندك؟

- لم أشعر بالراحة للفكرة وقلت

- ليس عندي ما أخبر أحدًا به.

فرد غاضبًا:

- كما تشاء لكن تذكر ما قلته لك: ستكون في نظرنا جاسوسًا، وسنحملك المسؤولية الكاملة إن أصاب أي مجاهد من الخليل والقدس أي مكروه, وأنت تعلم مصير العملاء، وأشار إلى رقبته..

عندها قلت له:

- لا بأس.. سأتحدث أمام «اللجنة الوطنية» وأمري إلى الله.

- لا تخف لن يحدث إلا كل خير، لكن اعلم أنهم يجلسون عادة مع الجدد ملثمين حفاظًا على أمنهم..

فترددت، لكني وافقت بعدما عاد يهددني ويتوعدني.

وفي اليوم التالي وكان يوم الجمعة، وبينما كنت في الساحة، قالوا لي:

- عندك زيارة..

فخرجت واصطحبني ذلك الشخص إلى حجرة صغيرة وكان في انتظاري فيها خمسة ملثمين، فعرفني عليهم أنهم «اللجنة الوطنية» وطلب مني أن أقص عليهم قصتي، ففعلت، وقصصت عليهم حكايتي من أولها إلى آخرها، من ألفها إلى يائها، فلما انتهيت أحضر لي ذلك الشخص كأس ماء «بلاستيكي» وأوصلني إلى الباب، ثم قال بلهجة ساخرة:

- سامحني!!

فنظرت إليه باستغراب، وإذا بالمقنعين الخمسة يرفعون أقنعتهم، فإذا هم المحققون!! فألقيت بالكأس نحو ذلك الخائن، ورحت أشتمه وأتوعده، وهم يضحكون مني يقولون:

- كل الاحترام لك، الآن ذكرت لنا الحقيقة الكاملة، ألم نقل لك أنك في النهاية ستعترف بكل شيء؟

فلم أستطع أن أتحمل أثر الصدمة، وأصبت بانهيار عصبي فنقلوني إلى العيادة، وتم إعطائي إبرة مهدئة، وعدت من جديد إلى التحقيق وكان كل ما قلته مسجلًا بصوتي وبشهادة المحققين، ولم أجد فائدة من معاودة الإنكار، فاعترفت، وأخذوني إلى مكان العملية، وأعدت التمثيل «التشخيصي» وأمضيت بعد ذلك مدة في الزنازين ثم إلى السجن.. حيث ما زلت..

لم تنته القصة بعد..

ما زال «البؤس» وما زال الاحتلال..

وما زال الحق قائمًا، وما زلت حيًا..

وما زلت أرتقب....!

الفهرس

ألف باء العزة والإباء: 1
زفرة.. 2
ميلاد صعب 4
طفولة بائسة 7
تحول جذري 13
وقت ساعة العمل 18
انتمائي لحركة حماس 25
الصفعة 29
الزواج 34
الالتحاق بصفوف كتائب القسام 38
الرد المزلزل 45
وللقصة بقية 56